

alexandra.ahlamontada.com

مكتبة الإسكندرية

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

درجات الزراعة المجمع

الأعمال
الإبداعية
الحائزة على
جائزة
نوبل

العجوز والبحر

ترجمة: د. مبرور وهبة

أرنست هينجواي



مكتبة الإسكندرية
الطبعة الأولى: ١٩٩٨

العجوز والبحر

طبعة خاصة
تصدرها الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

العجوز والبدر
أرنست هيمنجواي
نوبل ١٩٥٢

ترجمة: د. غبريال وهبه

| |
|--------------------------------|
| الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية |
| رقم الكتاب |
| ٤١٧٩ |
| رقم التصنيف |
| ٤١٧٩ |

دار النشر
دار الفكر العربي



مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(أعمال إبداعية/نوبل)

الناشر: الدار المصرية اللبنانية

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

العجوز والبحر

أرنست هيمنجواي

ترجمة د. غبريال وهبة

الغلاف

للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

مقدمة



ومازال نهر العطاء
يتدفق، تتفجر منه ينابيع
المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة
الفكرية المصرية وتواصلهم
جيلاً بعد جيل - ومازلنا
نتشبت بنور المعرفة حقاً
لكل إنسان ومازلت أحلم
بكتاب لكل مواطن ومكتبة
في كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القرءة للجميع» عن الطوق ودخلت
«مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس
ويثري الوجدان بكتاب في متناول الجميع ويشهد العالم
للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو
تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد
من لأىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ في وجدان
أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن،
مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان



القسام الأول

55

رجلاً أخته الشيخوخة يعمل بالصيد وحده في مركب شراعى صغير في مجرى الخليج . لم يظفر حتى الآن بأية سمكة منذ أربعة وثمانين يوماً مضت .



وفي الأيام الأربعين الأولى كان برفقته صبى ، بيد أنه بعد مرور أربعين يوماً بلا صيد انبرى والدا الصبى يقولان له : إن الرجل العجوز لا شك قد أصابه النحس ، وهذا أسوأ ما يُبتلى به إنسان من حظ سيء . انصاع الصبى لأوامرهما ، فذهب ليعمل في مركب آخر ، وفاز من أول أسبوع بثلاث سمكات من الأنواع الضخمة .

مسّت كبد الصبى لوعة حزن وهو يرى العجوز يجيء كل يوم بمركبه خاوياً ، وكان دائم الذهاب إليه ليعاونه في حمل لفات الحبال والأسلاك أو خطاف رفع الأسماك والرمح المستخدم في طعنها ، أو الشراع الملتف حول صارى المركب . . كان الشراع المرقع بقطع قماش من أكياس الدقيق يبدو وهو ملفوف كأنه علّم للهزيمة والإحباط ، والحياة المستمرة الدائمة .

كان الرجل العجوز نحيلاً تنتشر التجاعيد العميقة في أنحاء وجهه . وقد ظهرت على وجنتيه بثور سمراء من سرطان الجلد الحميد الناشء من انعكاس أشعة الشمس على مياه البحر في هذه المنطقة الاستوائية . . امتدت

البثور على جانبي وجهه بشكل واضح ، وبدت على يديه ندوبٌ عميقة من جراء تعامله مع الأسماك الثقيلة ، وتقييدها بالحبال . . لم يكن هناك نَدْبٌ (١) واحد حديث ، إذ كانت الندوب جميعها قديمة مثل التآكل الذي تحدثه عوامل التعرية في صحراء جدداء لا تعرف الأسماك .

كل شيء فيه يتصف بالقدم ، ما عدا عينيه اللتين كانتا بنفس لون البحر، ويطل منهما المرح وعدم اليأس .

وبينما كانا يتسلقان الضفة المنحدرة ، حيث سحبا المركب وألقيا مراسيه هناك ، قال له الصبي :

- سانتياجو . . يمكنني أن أرافقك ، وأعمل معك مرة أخرى . لقد حصلت على بعض النقود .

كان العجوز قد علّم الصبيّ كيف يصطاد الأسماك ، وقد تعلّق الغلامُ به وأحبه .

فقال له العجوز :

- كلاً .

واستطرد قائلاً :

- أنت تعمل في مركبٍ ابتسم الحظُّ لأصحابه . امكث معهم .

- لكن تذكر كيف ظللت فيما مضى سبعة وثمانين يوماً بدون أن يوجد علينا البحر بشيء ، ثم اصطدنا أسماكاً ضخمة كل يوم طوال ثلاثة أسابيع؟

(١) النَّدْبُ : أقرُّ الجُرْح .

قال العجوز :

- نعم أذكر ذلك .

ثم أضاف :

- أعرف أنك لم تتركنى بسبب ارتيابك فى عمل غير مؤكد ، وبدون نتائج مضمونة .

- إن أبى هو الذى جعلنى أتخلى عنك ، وأنا صبيى يجب على أن أطيعه .

فقال العجوز :

- أعرف . . هذا شىء طبيعى تماماً .

- إنه ليس على قدر كبير من الإخلاص والوفاء بالعهد .

قال العجوز :

- كلا . . ولكننا نتحلى بالإخلاص والوفاء ، أليس كذلك ؟ .

فقال الصبى :

- نعم .

وواصل حديثه :

- أيمكننى أن أقدم لك قدحاً من الجعة فى الشرفة (كانت محلاً وحانة على قطعة من الأرض شبه مستوية فى محاذاة البحر) ثم نأخذ المعدات إلى البيت .

فقال العجوز :

- ولم لا ؟ إننا صيادون من أبناء مهنة واحدة .

جلسا في الشرفة ، وراح كثير من الصيادين يهزؤون من العجوز ، ولم يُثِرْ ذلك غضبه . نظر إليه قدامى الصيادين في أسى وحُزن . بيد أنهم لم يُظهروا ذلك ، وتحدثوا بأدب عن التيار المائي الذي يجرف شباكهم وحبالهم في الأعماق ، وعن الطقس الجيد ، وعمّا شاهدوه في حياتهم مع البحر .

كان الصيادون الذين ظفروا بصيد طيب في ذلك اليوم على أهبة الاستعداد بعد أن أعملوا سكاكينهم في أسماك « المزلين » الضخمة لإعدادها للبيع ، ونقلوها ممدّدةً بطؤها على ألواح من الخشب ، حيث حملها الرجال وساروا بها وهم يترنحون ذات اليمين وذات اليسار إلى بيت الأسماك في انتظار الشاحنة الثلجة الكبيرة لتحملها إلى السوق في « هافانا » .

أما أولئك الذين اصطادوا أسماك القرش ، فقد مضوا بها إلى مصنع «القرش» في الناحية الأخرى من الخليج الصغير ، حيث يرفعونها بمجموعة من الحبال والبكرات لتوضع فوق كتلة خشبية ، وتُنزَع أكبادها ، وتُفصل زعانفها ، وتُسلخ جلودها ، وتُقطع لحومها إلى شرائح للتعليق .

وحين تهب الرياح من الشرق فلإنها تحمل معها عبر الميناء تلك الرائحة المنبعثة من مصنع «القرش» .

ولم يكن هناك في ذلك اليوم سوى رائحة ضعيفة ، حيث غيرت الرياح اتجاهها مبتعدة صوب الشمال ، ثم تضاءلت تدريجياً ، فكان الجو منعشاً لطيفاً ومشرقاً في الشرفة .

نادى الصبى العجوز :

.. سانتياجو .

كان العجوز ممسكاً بقدحه وهو يحتسى « الجعة » سابقاً بخياله عبر سنوات عمره العديدة التي مضت ، فقال :

- نعم .

- أويمكنني أن أذهب لأحضر لك بعض السردين من أجل الغد ؟

- كلا . . اذهب والعب « البيسبول » . . أنا ما زلتُ قادراً على التجذيف ، وسيلقى روجيليو بالشباك .

- وددتُ أن أذهب لأجيتك بالسردين ، وإذا كان لا يمكنني أن أصطاد معك فلا أقلُّ من أن أخدمك بطريقة ما .

فقال العجوز :

- لقد اشتريت لي قدحاً من « البيرة » .

وأضاف قائلاً :

- لقد أصبحت الآن رجلاً .

استفسر الصبي قائلاً :

- كم كان سنى حين أخذتني في الزورق لأول مرة ؟

- خمسة أعوام ، وكذت تلاقى مصرعك عندما ظفرت بسمكة ضخمة مفعمة بالحياة والقوة ، وأوشكت أن تحطم الزورق إلى شظايا . . أو يمكنك أن تتذكر ؟

- ما زلت أذكر أن ذيلها راح يضرب بعنف ، مُوجِّهاً صفعاته ولطاته بقوة ، ومحدثاً ضجة داوية ، والمقاومة العنيدة تتخاذل تحت وطأة ضربات

هراوتك . وأذكرك حين ألقيت بى إلى مقدمة المركب حيث كانت لفات
الجبال المبتلة قابعة هناك ، وشعرت بالمركب بأجمعه يهتز ويرتجف ، وسمعت
الضجيج عالياً وأنت تضرب السمكة بهراوتك كأنها توجه ضربات عنيفة
متكررة بالفأس نحو شجرة لقطعها ، وكانت رائحة الدم تملأ المكان حولي .

- أ تتذكر ذلك حقاً ، أم تراه مجرد ما روите لك ؟

- بل أتذكر كل شيء منذ أول مرة خرجنا فيها معاً .

تطلع إليه العجوز بعينه اللتين سَفَعَتُهُمَا الشمس (١) وتطل منها المرأة
والثقة بالنفس والحنان ، وقال :

- لو أنك كنت ابني لصحبتك لنغامر معاً :

ثم استطرد :

- ولكنك تنمى لأبيك وأمك ، وتعمل في مركبٍ جالبٍ للحظ الحسن .

- هل أجيئك بالسردين ؟ إننى أعرف من أين آتيك بأربعة من طُعم
الأسماك أيضاً ، .

- لدى ما تبقى منه اليوم . لقد وضعته في الملح داخل الصندوق .

- دعنى أزودك بأربع قطع من الطُعم الطازج .

قال العجوز :

- بل قطعة واحدة .

(١) سفعتها الشمس : لفتحها لفتحاً يسيراً .

لم يفقد الرجل الأمل والثقة قَط ، بل لقد أنعشها هبوب النسيم العليل .

انبرى الصبي قائلاً :

- أخصيرُ اثنتين .

وافق الرجل العجوز .

- أو لن تسرقهما ؟

فقال الصبي :

- لا تشرب عليّ إذا سرقتهما من أجلك ، ولكنني اشتريتهما .

قال العجوز :

- أشكرك .

كان الرجل من البساطة والتواضع حتى لم يثر ذلك دهشته ، ولم يكن الأمر مخزياً بالنسبة له ، ولم يجد فيه مساساً بكبريائه .

ثم قال :

- هذا التيار يبشر بغد طيب .

فسأله الصبي :

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- سأذهب بعيداً لأعود مع الرياح حين تغير اتجاهها . أريد أن أغادر البحر قبل أن يمد الفجر لسانه الدقيق .

عندئذ قال الغلام :

- سأحاول أن أجعل الذى أعمل معه يذهب بعيداً .

ثم أكمل حديثه قائلاً :

- حتى إذا أمسكت بصيد ضخم يمكننا أن نهرع إليك لمعاونتك .

- ولكن صاحبك لا يجب أن يتوغل بعيداً فى البحر .

فقال الصبى :

- أجل .

ثم أردف :

- ولكننى سأرى شيئاً لا يستطيع أن يراه مثل طائر بحرى يتعقب فريسته

فى البحر ، وهكذا أحمله على الخروج بعيداً سعياً وراء « دولفين » .

- هل عيناه من الضعف إلى هذا الحد ؟

- نعم ، بل يكاد يكون أعمى .

فقال العجوز :

- هذا غريب .

ثم أضاف :

- إنه يسير أبداً بِتَوَكُّدٍ كالسلاحفة ، وهذا هو الذى يطفىء نور العينين .

- ولكنك طالما رَحَلْتَ كالسلاحفة عبر شاطئ « البعوض » لسنوات

عدة ، ولم تزل عينك سليمتين .

- إننى عجوز عجيب .

- ولكن ، أما زِلتَ قويًا حتى الآن كى تصطاد سمكة ضخمة ؟

- أعتقد ذلك ، وهناك حيل عديدة .

- قال الصبى :

- دعنا نأخذ المعدات إلى البيت .

ثم قال :

- وهكذا يمكننى أن آخذ الشبكة الصغيرة لأطرحها ابتغاء صيد

السردين .

لقد التقطت المعدات من المركب .

حمل العجوز الصارى فوق كتفه ، وحمل الصبى الصندوق الخشبى وبه الحبال الملتفة المجدولة ذات اللون البنى ، والخطاف والرمح وقصبته . أمّا الصندوق المحتوى على الطُّعم فقد كان عند مؤخرة المركب ، ووضعت إلى جانبه الهراوة التى كانت تستخدم لإخضاع الأسماك الكبيرة وقهرها .

ومع أن أحداً لن يسرق من الرجل العجوز شيئاً ، فإنه كان من الأفضل نقل الشراع والحبال الثقيلة إلى البيت ؛ لأن الندى يُنزل أضراراً بهما .

أما الخطاف والرمح فقد كانا لا يغريان أحداً بالاستحواذ عليهما إذا ما تركهما فى المركب ، غير أنه آثر نقلهما إلى البيت برغم أنه كان واثقاً تماماً من أن السكان المحليين لن تمتد أيديهم إليه لتسرقه .

سارا فى الطرىق معاً ، وصعدا إلى الكوخ الذى ىقىم فىه الرىل العىوز ،
وذلكاً من بابہ المفتوح .

أنزل العىوز الصارى الذى ىلتف حوله الشراع ، وأسندہ إلى الجدار ،
ووضع الصبى الصندوق والمعدات الأخرى بجانب الصارى الذى كان
ىضارع فى امتداده طول الحجرة الوحيدة التى ىتكون منها الكوخ .

كان الكوخ مصنوعاً من جذوع أشجار النخيل الملكى الصلبة الضارب
لونہا إلى البىاض ، وىوجد بالداخل سرىر ، ومائدة ، ومقعد واحد ،
ومساحة صغىرة من الأرض المكسوة بالتراب ىطهو العىوز فوقها طعامه على
الفحم النباتى . أما الحوائط الداخلية البنىة فقد كانت مكسوة بألىاف
متشابكة من سعف النخيل ، وعلق فوقها صورة ملونة للقلب المقدس ،
وأخرى للعدراء ، وكانتا بقايا تذكارية من زوجته التى غادرت دنىانا . وفىما
مضى كانت هناك صورة لها ذات ألوان باهتة معلقة على الحائط ، غير أنه
أنزلها من فوق الجدران ؛ لأنه كلما نظر إليها كانت تحمل إليه إحساساً
بالوحدة والغربة الموحشة ، ووضعها على رف فى ركنٍ خلف قمىصه
النظىف .

سأله الصبى :

- ماذا عندك لتأكله ؟

- وعاء من الأرز الأصفر بالسّمك . هل لك فى قلىلٍ منه ؟

- كلا ، سأكل فى بىتى . هل أوقد لك النار ؟

- كلا ، سأوقدها بنفسى فىما بعد ، أو ربىا أتناول الأرز بارداً .

- هلا سمحت لى بأخذ الشبكة الصغىرة ؟

- بلا ريب .

لم تكن هناك شبكة صغيرة ، والصبي مازال يذكر متى باعها ، غير أنه كان يروق لهما أن يقوموا بهذه التمثيلية كل يوم متخيلين أنها مازالت موجودة . كما لم يكن هناك وعاء من الأرز الأصفر بالسّمك ، وكان الصبي يعلم ذلك أيضاً ، تذكر العجوز أن الغد سيكون اليوم الخامس والثمانين الذي يمضى بدون أن يظفر بصيد ، فقال للصبي :

- خمسة وثمانون . . رقم يجلب الحظ !

ثم أكمل حديثه قائلاً :

- أحب أن ترانى أحصل على سمكة يفوق وزنها ألف رطل ؟

قال الصبي :

- سأخذ الشبكة الصغيرة وأمضى طلباً للسردين . وأنت هلاًّ جلست في الشمس أمام مدخل الكوخ ؟

- نعم . عندي جريدة الأمس ، وسأقرأ صفحة « اليبسول » .

لم يكن الصبي يعلم ما إذا كانت جريدة الأمس حقيقة أم أنها مجرد خيال أيضاً ، ولكن العجوز أخرجها من تحت الفراش وقال مفسراً :

- لقد أعطاني « بيريكو » إياها في الحانة .

فقال الصبي :

- سأعود عندما أحصل على السردين ، وسأحتفظ بنصيبك ونصيبى معاً

في الثلج ، ويمكننا أن نتقاسمهما في الصباح ، وحين أعود تستطيع أن
تخبرني بأنباء « اليبسبول » .

- إن فريق « اليانكي » لا يمكن أن يهزم .

- ولكنني أخشى عليه من هنود « كليفلاند » .

- كن واثقاً يا بني « اليانكي » فكَرِّ في « ديبادجو » العظيم .

فقال الصبي :

- أخشى من نمور « ديترويت » وهنود « كليفلاند » .

- كن يقظاً وإلاً فستخشي أيضاً من حُر « سينسيناتي » وبيض
« شيكاجو » .

- ادرس ذلك وأخبرني حين تعود .

وفاجأه العجوز بقوله :

- أوتظن أن علينا أن نشترى ورقة يانصيب تنتهي برقم خمس وثمانين ؟
فغداً هو اليوم الخامس والثمانون .

قال الغلام :

- يمكننا أن نفعل ذلك .

ثم أضاف قائلاً :

- ولكن ماذا عن رقم سبع وثمانين الذي سجلت فيه رقمك القياسي في
الصيد ؟

- هذا لا يحدث مرتين في حياة الإنسان . هل تعتقد أنك يمكنك العثور على ورقة يانصيب تنتهي برقم خمس وثمانين ؟

- أستطيع أن أطلب واحدة .

- الورقة الواحدة ثمنها دولاران ونصف ، فَمِمَّنْ نقترض ذلك المبلغ ؟

- هذا سهل ميسور ، يمكنني دائماً أن أقترض دولارين ونصفاً .

- إنني مستطيع ذلك أيضاً ، غير أنني لا أحاول أن أقترض ، ففي أول الأمر تقترض ثم لا تلبث أن تسول .

قال الصبي :

- فلتذهب حماساً . أيها العجوز .

ثم أردف قائلاً :

- تذكر أننا في شهر سبتمبر .

قال العجوز :

- نعم . . الشهر الذي تأتي فيه الأسهم الكبيرة .

ثم انثنى يقول :

- أمّا شهر مايو ففي مقدور أي إنسان أن يكون فيه صياداً .

وهنا انبرى الصبي قائلاً :

- إنني ذاهب الآن سعياً وراء السردين .

وحين عاد الصبى وجد العجوز يغط في النوم وهو جالس على مقعده ،
وقد انتقلت الشمس إلى الضفة الغربية من «إقيانوس» السماء .

أمسك الصبى ببطانية عتيقة من مخلفات الجيش ، وجذبها من فوق
الفراش ونشرها على ظهر المقعد ، وفوق كتفى العجوز .

كانتا كتفين عجيبتين ، تتميزان بالقوة برغم أنها عتيقتان .

كما كان عنقه قوياً أيضاً ، وكادت الغضون والتجاعيد تختفى حينما كان
العجوز نائماً وقد تدلى رأسه إلى الأمام .

أما قميصه فقد كان مرصعاً برقع كثيرة ، حتى أصبح يُبائلل شراع مركبه ،
وبهت ألوان تلك الرقع إلى مختلف درجات الألوان تحت وطأة وهج
الشمس .

وبدا رأس العجوز وهو مغلق العينين كأنها قد خلا من معالم الحياة .

كانت الجريدة ترقد فوق ركبتيه وقد أبقاها في مكانها ثقل ذراعه .

كان العجوز حافق القدمين حين راحت نسبات المساء تداعبه حانية في
رفق ولين .

تركه الصبى هناك ، وحينما عاد ألفاه ما زال نائماً كما تركه .

وضع الصبى يده على إحدى ركبتي العجوز وصاح به :

- استيقظ أيها العجوز .

فتح العجوز عينيه ، ثم عاد بعد هنيهة إلى واقعه من أحلامه البعيدة .

ارتسمت على وجهه ابتسامة ، ثم سأل الصبى :

- بماذا جئت ؟

أجاب الغلام :

- بالعشاء ، وستتناوله معاً .

- لست في منتهى الجوع .

- هيا . . تعال وكُل ، لا يمكنك أن تخرج إلى الصيد وأنت جوعان .

- معك حق ، وعلى أن أتناول الطعام فعلاً .

استوى العجوز واقفاً على قدميه ، وأمسك بالجريدة وطواها . ثم بدأ يطوى البطانية .

فإذا بالصبي يصيح به :

- دع البطانية حول كتفيك .

ثم أردف قائلاً :

- لن تخرج للصيد أبداً دون أن تتناول طعامك طالما بقيت أنا على قيد الحياة .

فقال العجوز :

- إذن عِشْ طويلاً ، واعتنِ بنفسك .

ثم سأل الصبي :

- ماذا سنأكل ؟

أجابه الغلام :

- قُولاً وأرزاً ، وموزاً مقلّياً ، وبعضاً من اليخني .

وكان الصبي قد جاء بذلك الطعام من الشرفة في عمود ذى وعاءين معدنيين ، وأخرج من جيبه مجموعتين من أدوات المائدة ، كل منهما مكون من سكين وشوكة وملعقة ملفوفة في منديل من الورق .

سأله العجوز :

- من أعطاك هذه الأشياء ؟

أجاب الصبي :

- مارتين . . صاحب المحل .

- يجب أن أشكره .

فقال الغلام :

- لقد شكرته في حينه ، ولست في حاجة إلى أن تشكره مرة أخرى .

قال العجوز في حماس :

- سأهديه لحم بطن سمكة كبيرة في يومٍ مآ ، ألم يفعل ذلك معنا أكثر من مرة ؟

أجاب الصبي :

- أعتقد ذلك .

- يجب علىّ إذن أن أعطيه شيئاً أكثر من لحم بطن سمكة ، إنه يهتم بنا كثيراً .

- وأرسل لنا قدحين من البيرة .

- أفضل البيرة المعبأة في العلب .
- أعرف . ولكن هذه في زجاجات وتسمى « بيرة هاتوى » ، وسأعيد إليه الزجاجتين الفارغتين .
- فقال العجوز :
- هذا منتهى اللطف منك .
- ثم أردف :
- أوتناول الطعام ؟
- فتحدث إليه الصبي برقة ودماثة وكرم :
- سألتك هذا .
- ثم أضاف قائلاً :
- لم أشأ أن أفتح العمود قبل أن تكون متأهباً لتناول الطعام .
- فقال العجوز :
- إننى متأهب الآن .
- وأكمل حديثه قائلاً :
- إننى أحتاج فقط إلى فترة لأغسل يديّ فيها .
- فكر الصبي ثم سأل نفسه :
- أين مُغتسل^(١) العجوز ؟ إن صنبور مياه القرية على بعد شارعين من هذا الطريق .

(١) المغتسل : الماء الذى يغتسل به .

ثم استغرق الصبي لحظة مفكراً ، ثم قال لنفسه :

- كان عليّ أن أحضر له الماء إلى هنا ، وقطعة صابون ، ومنشفة جيدة ،
لماذا لم أفطن إلى ذلك ؟ يجب أن أبتاع له قميصاً آخر ، وسترة للشتاء ،
وحذاء من أى نوع ، وبطانية أخرى .

قال العجوز :

- إن اليخني الذي أحضرته ممتاز .

فسأله الصبي :

- هلاً حدثتني عن « اليبسبول » !

قال العجوز في سعادة :

- فاز فريق « اليانكي » في مباراة الدورى الأمريكى كما سبق أن قلت .

قال الغلام :

- ولكنه خسر مباراة اليوم .

- هذا لا يعنى شيئاً . إن « ديهادجو » العظيم متأهب لاستعادة مجده .

- ولكن لديهم أبطال غيره في الفريق .

- طبعاً . ولكن هناك فرق بين « ديهادجو » وغيره . وفي الدورى الآخر

بين فريقى « بروكلين » و « فيلادلفيا » أحسب أن فريق « بروكلين » سيفوز ،

غير أننى أفكر فى « ديك سيسلر » وأولئك الأبطال فى الملعب القديم .

- لم يكن يضارعهم أحد . إن « ديك سيسلر » يطلق الكرة إلى أطول

مسافة شاهدها فى حياتى .

- أوتتذكر عندما كان معتاداً على التردد على الشرفة ؟ لقد وددت أن أدعوه إلى الصيد ، ولكنني كنت أجبن من أن أسأله ذلك ، ثم سألتك أن تدعوه أنت ، غير أنك جبت أيضاً .

- أعرف ذلك ، كانت غلطة كبيرة . ومن أدرانا ؟ فربما ذهب معنا ، وعن له بعد ذلك أن يمضى معنا إلى آخر عمرنا .

فقال العجوز :

- وددت أن اصطحب « ديهادجو » العظيم في رحلة صيد .

ثم استطرد :

- يقولون إن أباه كان صياداً ، لعله كان فقيراً مثلنا فيتعهم وضعنا .

- أما والد « سيسلر » العظيم فلم يذله الفقر ، وكان ذلك الوالد يلعب في مباريات الدوري حين كان في مثل سنى .

- عندما كنت صغيراً ، كنت أتولى أمر شراع في سفينة عريضة جداً ذات أشرعة وصورٍ ، وكانت متجهة إلى إفريقيا ، وقد رأيت سباعاً على الشواطئ في المساء .

- أعرف ، فقد أخبرتني بذلك من قبل .

- هل تؤثر أن نتحدث عن إفريقيا أو عن « البيسبول » ؟

فقال الصبي :

- أعتقد أن « البيسبول » أفضل .

ثم استطرد قائلاً :

- حدثني عن « جون ج . ماكجرو » العظيم .

- اعتاد فيما مضى أن يجيء أحياناً إلى الشرفة ، ولكنه كان جُلُفًا فقطً .
وإذا شرب الخمر كان من الصعب إرضاءه ، أو التعامل معه . كان عقله
مشغولاً بالجياذ تماماً مثلها كان يهتم باليسبول ، فكان دائماً يحمل في جيوبه
قوائم بأسماء الجياذ ، وكثيراً ما يذكر أسماءها في أحاديثه التليفونية .

فقال الصبي :

- كان إدارياً عظيماً يحسن التنظيم ، كان أبى يعتقد أنه أعظم المنظمين .

عندئذ قال العجوز :

- ذلك لأنه كان يجيء إلى هنا في معظم الأوقات .

ثم استطرد قائلاً :

- لو أن « دوروتشر » استمر يأتى إلى هنا كل عام لاعتقد والدك أنه أعظم

المنظمين .

- من هو أعظم المنظمين حقاً . . لو كيه أو ميكيه جونثاليت ؟

- أعتقد أن كلا منهما يضارع الآخر .

- وأنتك أفضل صياد .

- كلا ، أعرف آخرين أمهر منى .

فقال الصبي :

- كلا . . كيف يتأتى ذلك ؟!

ثم أردف :

- هناك العديد من مهرة الصيادين ، والبعض يُعَدُّ من أعظم الصيادين ، ولكن هناك أنت فقط ، فإنك نسيج وحدك .

- شكراً لك ، إنك تجعلني سعيداً ، أمل ألا تخرج من البحر سمكة من الضخامة بحيث تثبت أننا مخطئون .

- لیس هناك مثل تلك السمكة إذا كنت لم تزل قويًا كما تقول .

قال العجوز معلقاً :

- ربما لا أكون قويًا كما أعتقد .

- ثم أكمل قائلاً :

- ولكنني أعرف كثيراً من الحيل ، وأتحلى بالإصرار والعزم .

- عليك أن تتوجه إلى غدعك الآن لتنام حتى تصحو نشاطاً في الصباح

. . سأخذ المعدات معي إلى الشرفة .

- طابت ليلتك إذن ، سأوقظك في الصباح .

فقال الصبي :

- إنك ساعتى المنبهة .

وهنا انبرى العجوز قائلاً :

- الشيخوخة هي ساعتى المنبهة .

صمت هنيهة ، ثم استطرد قائلاً :

- لماذا يستيقظ مَنْ تقدمتْ بهم السن مبكرين ؟ ألكى يفوزوا بيوم أطول
عن الآخرين ؟

فقال الصبى :

- لا أدرى .

ثم قال :

- وكل ما أعرفه أن الأولاد الصغار ينامون فى وقت متأخر ثم يروحون فى
نوم متصل عميق .

هز العجوز رأسه وقال :

- يمكننى أن أتذكر ذلك حينها كنت صغيراً .

ثم قال :

- سأوقظك فى الوقت المحدد .

- إننى لا أحب أن يوقظنى الرجل الذى أعمل معه ، فهذا يشعرنى كما لو
كنت أدنى منه .

- أعرف ذلك .

- أرجو لك نوماً طيباً أيها العجوز .

انسل الغلام خارجاً . لم يكن هناك ضوء عندما تناولا عشاءهما على
المائدة .

خلع العجوز « بنطلونه » ومضى إلى مخدعه فى الظلام .. لف
« البنطلون » على الجريدة وكَوَّمَهُ متخذاً منه وسادة لرأسه ، وغطى أسلاك

السريير الزنبركية بالجرائد القديمة ، ونام فوقها بعد أن لف نفسه ببطانيته .
استغرق العجوز في النوم بعد فترة وجيزة ، وعادت به أحلامه إلى صباه ،
وحملته إلى إفريقيا . . إلى شطآنها الذهبية الطويلة ، وشفافها البيضاء التي
تبهر العيون ، والأراضى ذات الارتفاع الشاهق الداخلة في البحر ، وجبالها
السمراء التي تكاد تناطح السماء .

كان يعيش كل ليلة على طول ذلك الساحل ، وهو يسمع في أحلامه
هدير الأمواج ، ويرى فوقها زوارق السكان المحليين قادمة بهم ، وكان
يستنشق رائحة القار ونسالة الجبال القديمة فوق سطح المركب الذي استلقى
عليه ، ويتسلل إلى أنفه عبر أرض إفريقيا الذي يحمله إليه نسيم الصباح .

وعادة ما كان يصحو عندما يستنشق عبر الأرض ، ويرتدى ثيابه ،
ويذهب لإيقاظ الصبي . ولكن عبر الأرض الذي حمله إليه نسيم الصباح
استنشقه مبكراً في هذه الليلة ، وعرف ذلك في حلمه ، فاستمر يحلم ليرى
القمم البيضاء لجبال الجزر البارزة من البحر ، ثم رأى في حلمه شتى موانئ
ومرافئ الكاناري ومراسيها البحرية .

لم يعد العجوز يحلم بالعواصف ، ولا بالأحداث الكبيرة ، ولا بالأسماك
الضخمة ، ولا بالمعارك ، ولا بمباريات القوة ، ولا بزوجته .

إنه الآن يحلم فقط بالأماكن والسباع التي كانت تلهو هناك على الشاطئ
كما تلهو صغار القطط في الغسق ، كان يجب تلك الأسود مثلما يُحب الصبي
الذي لم يكن يحلم به قط .

استيقظ من نومه بسهولة ، وتطلع من الباب المفتوح إلى القمر ، وفرد
بنظلولونه وارتياده .

بآل العجوزُ خارج الكوخ ، ثم مضى صاعداً في الطريق لإيقاظ الغلام .
كان يرتعد من برد الصباح ، ولكنه كان يعرف أنه سيشعر بالدفء ، إذ
سرعان ما سيشرع في التجديف عبر البحر .

كان باب البيت الذي يقيم فيه الصبي غير مُوصد ، ففتحه العجوز
ومضى حافي القدمين في هدوء إلى الداخل . كان الصبي ينام فوق سرير
صغير في أول حجرة ، واستطاع العجوز أن يراه بوضوح عبر الضوء المنبعث
من القمر الذي قارب الزوال . أمسك بإحدى قدميه برفق ، وظل ممسكاً بها
حتى صحا الصبي ، واستدار ناظراً إليه .

أوماً إليه العجوز بتحية الصباح .

تناول الصبي « بنظلولونه » من فوق المقعد المجاور للسرير ، ثم جلس على
الفراش ليرتدى « بنظلولونه » .

انسَلَّ العجوز خارجاً ، وتبعه الصبي . كان النوم لا يزال يداعب
أجفانه ، فوضع العجوز ذراعه حول كتفى الغلام وقال :

ـ أنا آسف .

فقال الصبي :

ـ كلا . . لا داعى للأسف ! إن هذا ما يجب أن يفعله أى رجل .

سارا عبر الطريق إلى كووخ العجوز وسط الظلام . كان هناك رجال حُفَاة
الأقدام يتحركون وهم يحملون صواري مراكبهم .

وحين وصل الصبى والعجوز إلى الكوخ ، حمل الصبى حبال الصيد في السلة ، والرمح والخطاف ، وحمل العجوز الصارى فوق كتفه .

التفت الغلام إلى العجوز وسأله :

- أتريد قدحاً من القهوة ؟

- سنضع المعدات في المركب ، ثم نحتسى بعض القهوة .

وحصلا على قهوة باللبن من دكان يفتح أبوابه في الصباح الباكر ليقدم خدماته للصيادين .

ابتدأ الصبى يتبته الآن بعد أن فارق النوم عينيه ، برغم أنه لم يزل يشق عليه أن يتخلى عن النوم .

سأل الصبى صاحبه :

- كيف نمت أيها العجوز ؟

فأجابه العجوز :

- نومة طيبة جداً يا « مانولين » . إننى أشعر اليوم بالثقة .

فقال الصبى :

- وأنا أيضاً أشعر مثلك بالثقة . والآن يجب أن أتى بنصيبك ونصيبى من السردين ، وأن أزودك بالطعم الطازج أيضاً . إن الصياد الذى أعمل معه يحمل معدائنا بنفسه ، إنه لا يجب أن يحمل له أحد أى شيء .

حينئذ قال العجوز :

- نحن مختلفان ، لقد جعلتك تحمل الأشياء عندما كنت في الخامسة من عمرك .

فقال الغلام :

- أعرف ذلك . . سأعود حالاً . . تناول قديماً آخر من القهوة ، فكل ما
نأخذه هنا على الحساب .

ومضى الغلام يسير فوق الصخور المرجانية حافي القدمين صوب الثلجة
حيث يخزن الطعم .

شرب العجوز قهوته ، وكانت هي كل ما يستطيع أن يحصل عليه منها ،
وكان يعلم أنه ينبغي عليه أن يحتسيها ، فمئذ وقت طويل صار الطعام
مصدر إزعاج له ، فلم يعد يحمل معه أية وجبة غذائية . كان معه زجاجة
ماء يضعها في حنيئة المركب ، وكان ذلك هو كل ما يحتاج إليه في يومه .

عاد الصبي الآن ومعه السردين والطعم ملفوفين في إحدى الجرائد .

سارا معاً صوب المركب وهما يشعران بالحصى الذي يفترش الرمال تحت
أقدامهما العارية ، ولم يلبثا أن رفعا المركب ودفعاه حتى انزلت فوق الماء .

- حظاً سعيداً أيها العجوز !

فقال له الرجل :

- حظاً سعيداً .

ثبَّت العجوز مجذافيه في موضعها ، وانحنى إلى الأمام ، وبدأ يجذف
خارجاً من المرفأ تحت جناح الظلام . كانت هناك زوارق من الشواطئ
الأخرى تشق طريقها إلى البحر .

كان العجوز يسمع صوت مجاذيفها وهي تضرب صفحة الماء وتدفعه ،
وإن لم يكن يراها الآن ، حيث توارى القمر خلف التلال .

وقد يتحدث أحدهم أحياناً وهو في قاربه ، غير أن معظم الزوارق كانت صامته ، اللهم إلا صوت ارتطام المجاذيف بالماء .

وما كادت الزوارق والمراكب تغادر الميناء حتى تفرقت مبتعدة عن بعضها البعض ، وكل منها يسعى نحو البقعة التي يأمل أن فيها سمكاً وفيراً في المحيط .

كان العجوز يعرف أنه قد عقد العزم على أن يتوغل بعيداً ، وها هو ذا يخلف وراءه رائحة الأرض ، وراح يضرب الماء بمجذافيه صوب رائحة المحيط في الصباح الباكر الصافي .

شاهد العجوز الوميض الفوسفوري المنبعث من أعشاب الخليج حين كان يجذف فوق تلك البقعة من المحيط التي يُطلق عليها الصيادون « البئر العظيمة » حيث يوجد عندها عمق مفاجيء يصل إلى سبعمائة قامة .
وعندها تتجمع الأسماك بسبب الدوامة التي يحدثها تيار الماء هناك ، وعندها نجد تجمعات من سمك القُرَيْدِس ، وسمك الطُعم ، وأحياناً قطعاناً مائية من الحَبَّار في الثقوب العميقة ، وهي تطفو قريباً من السطح ليلاً حيث تتغذى عليها جميع الأسماك التي تطوف متجولة حول البئر .

إن العجوز يستطيع وسط الظلمة أن يحس بمقدم الصباح ، وبينما كان يجذف إذ سمع صوتاً مهتزازاً مرتعشاً ، كالذي يخلفه السمك الطائر وهو يغادر الماء ، وتلك الهسهسة التي تطلقها أجنحته الصلبة القوية وهو يرتفع مملقاً في الجو تحت جناح الظلام .

كان مغرمًا بالأسماك الطائرة فهن صديقاته الأثيرات وسط المحيط . .
كان يشعر بالأسى والشجن من أجل الطيور ، وخاصة طيور « الحُرْبُوتَة »



المائية الرقيقة السمراء التي كانت دائمة التحليق فوق الماء باحثة عن رزقها بدون أن تظفر بشيء . واستغرق في التفكير . . إن الطيور تعيش حياة أقسى من حياتنا نحن البشر ، فيما عدا الطيور السارقة والطيور الضخمة الثقيلة الوطأة . لماذا خلقت الطيور الصغيرة بهذه الرقة ، والمحيط بهذه القسوة؟ إن المحيط رقيق ورائع ، ولكنه يستطيع أن يكون قاسياً ويتغير على هذا النحو فجأة ، ومثل تلك الطيور المحلقة تغوص وتتصيد . . إنها بأصواتها الرقيقة الحزينة أرق من أن تواجه البحر .

كان العجوز دائم التفكير في البحر ويسميه « لا مار » كما اعتاد الناس أن يسموه بالإسبانية عندما يعشقونه . وفي بعض الأحيان ينعت أولئك الذين يحبونه بأشياء سيئة ، ولكنهم برغم ذلك يقال إنهم يتحدثون عنه كما لو كانوا يتحدثون عن أنثى .

أما شباب الصيادين الذين يستخدمون العوامات كمنصات عائمة للرجال صنانيرهم وشباكهم ، والذين لديهم زوارق مزودة بمحركات آلية اتباعوها حينما كانت أكباد أسماك القرش تغل كثيراً من النقود ، فإنهم عندما يتحدثون عن البحر يقولون بالإسبانية « إل مار » فيجعلونه مذكراً لا مؤنثاً (وهو مذكر في اللغة الإسبانية) . وكانوا يتحدثون عنه كمنافس أو كمجرد مكان أو حتى كعدو لدود .

ولكن العجوز كان يفكر فيه دائماً كأنثى ، وكشئ يمنح هدايا عظيمة أو يحتبسها محتفظاً بها لنفسه ، وإذا صدرت منها أمور وحشية أو خطيرة مؤذية فإنها لأنها لا تتألك نفسها .

كما أنه كان يعتقد أن للقمر تأثيره على البحر كما يؤثر على المرأة .

ظل العجوز يجذف بثبات بدون أن يستشعر جهداً منذ أن احتفظ بسرعة مناسبة ، وكان سطح المحيط مصقولاً كصفحة المرآة ، اللهم إلا بضع دوامات يحدثها التيار أحياناً عرضاً واتفاقاً . وقد ترك الرجل التيار يضطلع بثلاث العمل .

بدأ مصباح النهار ينبلج فرأى العجوز أنه قد أوغل في البحر متجاوزاً ما كان قد قدره لنفسه أن يجتازه حتى هذه الساعة .
وهمس لنفسه :

- لقد سبرت أغوار الآبار السحيقة طوال أسبوع كامل بدون أن أظفر بشيء .

وواصل العجوز الحديث مع نفسه :

- اليوم سأقتفى آثار قطعان « البينيت » (سمك استوائى من فصيلة التونة) والبيكورة- (سمك بحرى كبير من فصيلة السممرى) فربما نظرت بسمكة كبيرة معها .

وقبل أن يكتمل ضوء الصباح أعد العجوز ما لديه من الطعام ، ومضى قدماً مع التيار ، وها هو ذا الطعام الأول وصل إلى عمق أربعين قامة ، والثانى إلى خمس وسبعين ، أما الثالث والرابع فقد ألقى بهما إلى عمق سحيق في الماء الأزرق . . مائة قامة . . ومائة وخمس وعشرين قامة .

وكان كل طعام معلقاً مقلوباً رأساً على عقب ، وقد ربط وحيك بعناية حول الخطاف وساقه الموجودة داخل اللحم . فى حين كان الجزء المنحنى البارز من الخطاف وسنه الحاد مُغَطَّى بالسردين الطازج . وفى رأس كل

سردينة خطاف مزدوج له طرف في كل عين ، بحيث يتكون من ذلك نصف حلقة حول الفولاذ الناتىء .

لم يكن هناك جزء من الخطاف لا تحس فيه أية سمكة كبيرة بنكهته الحلوة، ومذاقه الطيب .

كان الصبى قد أعطاه سمكتين صغيرتين طازجتين من التونة ، وقد علقهما العجوز كريشتين في حبال الصيد الغائرة في العمق السحيق .

أمّا الجبلان الآخران فينتهى أحدهما في الماء بنبات أزرق ذى سوق مدادة، والآخر بسمك أصفر صغير السن من سمك سليمان ، كان العجوز قد استخدمهما من قبل ، ولكنهما كانا مازالا في حالة طيبة . ووضع معها سرديناً من طراز ممتاز ليعطيها نكهة طيبة ، ويكسبها جاذبية .



كل جبل من جبال الصيد في سُمكِ قلم رصاص كبير ، وقد ثبت به عصاً خضراء بأنشوطة ، بحيث إن أية جذبة أو لمسة تصيب الطعم تكون كفيلة بتحريك العصا ، وجعلها تغطس في الماء . وكل جبل معه لَفْتَان ، يبلغ طولهما ٢٤٠ قدماً ، ويمكن تثبيتهما بإحكام في لفات أخرى إضافية ، حتى يمكن عند الضرورة أن تجذب إحدى الأسماك ما يبلغ عمقه ألفاً وثمانمائة قدم من الجبال .



وراقب العجوز اهتزازات العِصِيّ الثلاث ، وراح يجذب برفق لكي يحفظ لكل جبل غوره . وازداد الضوء وضوحاً ، وأوشكت الشمس أن تبرز من خدرها .

أشرقت الشمس من وراء البحر فاستطاع العجوز أن يرى بقية القوارب متناثرة فوق سطح الماء حتى الشاطيء .

ثم ارتفعت الشمس في السماء ، وسقطت أشعتها على صفحة الماء ، وانعكست متألقة كالفضة على عيني العجوز فألمته ، واستمر يجذب بدون أن ينظر إلى سطح البحر ، واكتفى بمراقبة حركات حباله في الأعماق السحيقة ، وأحكم الرجل مواضعها ، بحيث يهبط كل طعم إلى المستوى الذي يريده له تماماً انتظاراً لأي سمكة تندفع نحوه . أما غيره من

الصيادين ، فإنهم يتركون حبالهم للتيار يعبث بها ، حتى إنها أحياناً قد تكون على عمق ثلاثمائة وستين قدماً وهم يظنون أنها هبطت إلى ستمائة قدم .

استغرق العجوز في التفكير وهو يقول في نفسه :

- إننى أحتفظ بمواقع ما ألقى به من طعم بدقة ، غير أن الحظ قد نخلى عنى ، ولكن من يعلم ؟ لعله يحالفنى اليوم ، فكل يوم هو يوم جديد . من الأفضل أن يكون الإنسان محظوظاً ، ولكننى أؤثر إذا عملتُ عملاً أن أتقنه ، حيثئذ إذا جاء الحظ يكون المرء متأهباً لاستقباله .

مرت ساعتان اشتد بعدهما ارتفاع الشمس ، ولم يعد وهجها يؤذى عيني العجوز كثيراً حين ينظر نحو الشرق . . إنه الآن لم يجد سوى ثلاثة قوارب على مرمى البصر بالقرب من الشاطئ .

وقال العجوز في نفسه :

- طوال حياتى آذت شمس الصباح الباكر عيني . ومع ذلك فما زالتنا بخير ، وأستطيع أن أهدق في الشمس مباشرة عند المساء قبل أن يهبط الظلام ، حيث تكون محتفظة ببعض قوتها أيضاً ، أما في الصباح فهى مؤلمة .
وفجأة رأى العجوز طائراً من الطيور المغردة يحوم فوقه في السماء مرفرفاً بجناحيه الأسودين الطويلين ، ثم هبط سريعاً وهو ينحدر بجناحيه نحو الماء ، ولم يلبث أن أخذ يحوم في السماء مرة أخرى .

قال العجوز لنفسه :

- إنه لم يكن يبحث . . بل لقد لمح شيئاً .

جذف العجوز في الماء وبيداً وبشبات نحو الموضع الذى كان يحوم حوله

الطائر ، وشق طريقه إلى الأمام مزاحماً التيار في رفق بدون أن يهمل استقامة حباله في الماء ، وبأسرع مما كان يفعله إذا لم يكن يحاول تتبع الطائر .

ارتفع الطائر في الجو ، وحام مرة أخرى باسطاً جناحيه بدون أن يحركهما ، ثم هبط فجأة منقضاً على الماء ، ورأى العجوز سمكة من السمك الطيار تشق الماء وتقفز خارجة منه ، ثم طفت يائسة فوق سطح البحر .

صاح العجوز :

- دلفين . . دلفين ضخم !

أخرج مجذافيه من الماء وأدخلهما في المركب ، وأحضر حبلاً صغيراً من قاع حنية المركب ، وكان ينتهى بسلك متصل بآخره خطاف متوسط الحجم ثبت فيه طعماً من السردين ، وعقد طرف الحبل في حلقة مثبتة في مسمار بمؤخرة المركب .

ثم أعد حبلاً آخر ، وزود خطافه بالطعم ، وتركه في حنية المركب .

وعاد يجذف وهو يراقب الطائر الأسود الذى راح الآن يرفرف بجناحيه الطويلين هابطاً إلى قرب سطح الماء .

شاهد الطائر ينقض مرة أخرى وهو يضرب بجناحيه بقوة وضراوة وهو يتتبع السمك الطائر . واستطاع العجوز أن يرى نتوء الماء المنتفخة التى رفعها الدلفين الضخم فى حين كان هو والطائر يتعقبان الأسماك الهاربة ، وكان الدلفين يشق الماء أسفل الأسماك الطائرة ماضياً بسرعة عندما غاصت الأسماك .

وظن الرجل العجوز أن سرباً من الدلافين انتشر فى الماء ، وأن فسحة

الأمل في النجاة قد ضاقت أمام السمك الطائر . ولم يعد هناك أمل للطائر
فقد كانت الأسماك الطائرة ضخمة بالنسبة إليه ، وأسرع منه .

ظل العجوز يرقب الأسماك الطائرة وهي تنطلق من الماء المرة تلو المرة ،
والطائر يتعقبها من غير طائل .

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

- لقد ابتعد عنى سرب الأسماك الطائرة ، وأصبحت الشُّقَّة بينى وبينه
طويلة ، فهو يتحرك بسرعة كبيرة ، ولكن لعلنى ألتقط سمكة ضالة
شاردة، ولعلها تكون ضخمة ، ولا بد أن تكون سمكتى الكبيرة التى
أنشدها موجودة في مكان ما .

ارتفعت السحب المنعقدة فوق الأرض حتى بدت كأنها الجبال ، وظهر
الشاطئ من بعيد كخط أخضر طويل تطل من ورائه التلال الزرقاء
الرمادية .

وأصبح لون الماء أزرقً حالكاً مُشوباً بلون أرجوانى ، وعندما تمعن فيه
العجوز شاهد بقعاً حمراء من العوالق المكونة من كائنات حيوانية أو نباتية
صغيرة معلقة في المياه القائمة أو طافية فوقها ، والضوء العجيب الذى تبعث
به الشمس الآن ، وراقب حباله ليتأكد من أنها مغمورة في أعماق المياه ،
وغمرته السعادة وهو يرى مزيداً من العوالق ؛ لأن هذا معناه وجود
الأسماك ، وكان الضوء الغريب الذى ترسله الشمس في الماء بعد أن ازدادت
علوً في السماء بشيراً بجو طيب يؤكد شكل السحب المطلة فوق الأرض .
ولكن الطائر كاد يغيب الآن عن مرمى البصر ، ولم يعد على سطح الماء
سوى بضع بقع من طحالب السرجس البحرية التى أحالتها الشمس إلى

اللون الأصفر ، وحيوان البارجة البرتغالية كان طافياً بالقرب من المركب ، وهو حيوان من الأبليات ، أعلاه مُشكَّل كهيئة مثانة هلامية بألوان زاهية كألوان قوس قزح ، وقد تحرك على جنبه ثم استوى في وضعه الطبيعي . وكان منظره بهيجاً وهو يطفو كفقاعة تمتد خلفها خيوط وشعيرات قرمزية مهلكة مميتة إلى مدى ياردة في الماء .

ومال الرجل ناحية أحد مجذافيه ، ونظر إلى ما تحت الماء ، فرأى سميكات صغيرة كانت في مثل لون الخيوط والشعيرات ، وكانت تسبح تحت الظل الذي تلقيه الفقاعة في أثناء تحركها وبين تلك الشعيرات القرمزية المميته ، وكانت تلك السميكات لديها مناعة ضد سم هذه الشعيرات ، ولكن الإنسان لم يكن يتمتع بتلك المناعة ، وعندما تلتصق بعض تلك الخيوط والشعيرات القرمزية اللزجة بأحد الحبال فإن الرجل العجوز حين كان يتعامل مع إحدى الأسماك فإنه يُصاب بآثار وقروح مؤلمة في ذراعيه ويديه ، كتلك التي يحدثها اللبلاّب السام ، أو البلوط السام ، غير أن التسمم من تلك المياه يحدث سريعاً ، وله لسعات الشياط .

وكم كانت جميلة تلك الفقاعات المتلونة بألوان قوس قزح ، ولكنها كانت أكثر الأشياء زيفاً في البحر ، وكان العجوز يلذ له أن يشاهد السلاحف البحرية الضخمة وهي تأكلها . واقتربت السلاحف منها عندما وقع بصرها عليها ، وواجهتها من الأمام ، ثم أغلقت عينيها حتى أصبحت خلف غطائها العظمى تماماً ، والتهمت الخيوط والشعيرات وانتهى الأمر . هذا المشهد يجبه العجوز ، كما كان يجب أن يسير فوق ظهور تلك السلاحف على الشاطئ ، بعد أن تهدأ العواصف ، فيستمتع بسماع القرعقة وهو يخطو فوق درقاتها بأخص قدميه الصلبتين الخشنتين المتقرنتين .

وكان يؤثر السلاحف الخضراء وسلاحف البحر بأناقتهما وسرعتها ومنفعتهما الكبيرة ، وله صداقة جدية بالازدراء نحو السلاحف البحرية الكبيرة من ذوات الدروع الصفراء والرءوس الضخمة ، والتي تتصف بالغباء ، وغرابة الغزل الذي يمارسه الذكور نحو الإناث التي تلتهم حيوانات البوارج البرتغالية وهي مغلقة العينين .

لم يكن صيد السلاحف يروق له ، برغم أنه عمل في مراكب صيادى السلاحف سنين عدة .

كان يأسف لها جميعاً ، ويشعر بالحزن من أجلها ، حتى السلاحف الضخمة التي يمتد طول درقاتها إلى طول الزورق ، والتي كانت تزن طنّاً .

ومعظم الناس من متحجى القلوب ، وختل أفئدتهم من الرحمة والشفقة إزاء السلاحف ، إذ يظل قلب السلحفاة يخفق وينبض عدة ساعات بعد استئصاله من السلحفاة المذبوحة ، ولا يؤثر ذلك فيهم . وكان العجوز يقول لنفسه :

- أنا أيضاً لى مثل ذلك القلب ، ولى يدان وقدمان كأيدى وأقدام السلاحف .

كان يأكل بيضها الأبيض ليُكسبه قوة ، وكان يأكل السلاحف أيضاً طوال شهر مايو حتى يشتد ساعدها في سبتمبر وأكتوبر ليقوى على مواجهة الأسماك الضخمة خلالها .

كما كان يشرب قدحاً من زيت كبد القرش كل يوم من البرميل الموجود بالكوخ الذى يضع فيه كثير من الصيادين معداتهم . وهو هناك من أجل كل الصيادين الذين يبتغونه . ويكره أكثر الصيادين مذاق الزيت ، فى حين

أن مذاقه ليس أشد قسوة من مرارة الساعة التي ينهضون فيها من مضاجعهم في الصباح الباكر ، كما أن ذلك الزيت دواء ناجع لمقاومة نزلات البرد والإنفلونزا ، فضلاً عن أنه مفيد للأعين .

تطلع العجوز الآن إلى أعلى فرأى الطائر يحوم مرة أخرى ، فقال بصوت عالٍ :

- لقد اكتشف سمكاً .

لم ير العجوز في هذه المرة سمكاً طائراً ، أو سمكاً طعم مبعثراً على سطح الماء .

وشاهد سمكة صغيرة من نوع التونة تعلو في الهواء ثم استدارت وهوت برأسها في الماء .

كانت سمكة التونة تتألق كالفضة في وهج الشمس ، وما كادت تعود مبادلة إلى الماء حتى برزت أخرى وكثيرات غيرها وهنَّ يَبْنُ في كل اتجاه ، فأزبد الماء وتحرك مضطرباً ، في حين كانت أسماك التونة تقفز قفزات عالية وراء سميكات الطعم ، مُحَاصِرَةً إياها ثم تهبط بها .

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

- إذا لم تخسِ بعيداً فسأفوز بها .

وجعل يراقب سرب الأسماك الذي جعل لون الماء مبييضاً . وكان الطائر يهبط ويغوص وراء سميكات الطعم التي أجبرت على أن تلوذ بالسطح تلتمس النجاة بعد أن أصيبت بذعر مفاجيء .

وقال العجوز :

- إن ذلك الطائر عَوْنٌ كبير لى .

وسرعان ما شعر بالحبل الموجود فى مؤخرة المركب يتوتر تحت قدمه ، حيث كان قد عقد أنشودة به ، احتفظ بها أسفل باطن قدمه . أسقطَ مجذافيه فى المركب ، وشعر بثقل سمكة التونة وهى تهتز وترتعش ، فأمسك بالحبل بقوة ، وبدأ يجذبه . . زاد ارتعاش السمكة وهو يوللى جذب الحبل ، واستطاع أن يرى ظهرها الأزرق ، وجوانبها الذهبية ، وهى فى الماء قبل أن يطوح بها فى الهواء ، ويُسقطها داخل المركب . ورقدت السمكة فى المؤخرة تحت الشمس ، وكانت مكتنزة ولها شكل الرصاصة ، وأخذت تحملق بعينيها الكبيرتين اللتين يعوزهما الذكاء وهى تصارع من أجل الحياة ضاربة ألواح المركب الخشبية ضربات مرتعشة سريعة بذيلها الدقيق الأملس الناعم .

ضربها الرجل العجوز على رأسها بدافع الشفقة ، وركلها بقدمه ، غير أن جسدها كان لم يزل يرتعد ويرتجف عند مؤخرة المركب .

صاح العجوز :

- إنها البكورة (نوع من السمك البحرى الكبير من فصيلة السقمرى) .

ثم أردف :

- إنها تصلح لأن أصنع من لحمها طعاماً جميلاً ، إنها تزن نحو عشرة أرطال .

إنه لا يتذكر متى بدأ يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ حينما يكون وحده .
كان يغنى إذا ما خلا إلى نفسه فى الأيام القديمة ، وكان أحياناً يغنى فى

الليل وهو يدير الدفة في المراكب الشراعية وحيدة الصاري ، أو في مراكب صيد السلاحف .

ومن المحتمل أنه بدأ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع حين يكون وحده ، بعد أن تركه الصبي الذي كان يعمل معه .

وعندما كان يمارس الصيد هو والصبي كانا عادة يتحدثان معاً عندما تدعو الضرورة إلى ذلك فقط . . كان حديثها دائماً في أثناء الليل ، أو في الأحوال الجوية السيئة حينما تواجههما العاصفة . ذلك أنه من الأفضل عدم الحديث في البحر بدون داعٍ ، وكان العجوز يحترم تلك الفضيحة على الدوام .

أما الآن فإنه يتحدث مرات عديدة إلى نفسه مُعرباً عن أفكاره بصوت مرتفع ما دام وحده ، وليس هناك من يزعجه بثرثرته .

تحدث العجوز إلى نفسه بصوت مرتفع قائلاً :

- إذا سمعني الآخرون أتحدث إلى نفسي بصوت مرتفع فسيظنون أنني مجنون ، ولكنني لما كنت ليس كذلك فإنني لا أبالي . إن أثرياء الصيادين يمتلكون أجهزة الراديو تتحدث إليهم في مراكبهم ، وتنقل لهم أنباء «البيسبول» .

ثم قال لنفسه :

- والآن ليس هذا أوان التفكير في «البيسبول» ، بل إنه الوقت الذي أفكر فيه فقط في أمر واحد ، هو ذلك الذي خُلقت من أجله .

وبدا على العجوز اهتمام جدّي وهو يهمس :

- قد تكون هناك سمكة ضخمة حول هذا السرب ، لقد التقطت فقط سمكة واحدة شاردة من سرب سمك السقمري الكبير ، ولكنه رحل بعيداً وسريعاً . إن كل ما يطفو اليوم على سطح الماء يمضى بسرعة فائقة نحو الشمال الشرقي ، أياكون ذلك من عادات الأسماك في مثل هذا الوقت من اليوم ، أم لعلها تكون علامة من علامات الطقس لا أعرفها ؟

لم يكن في استطاعته الآن أن يرى خضرة الشاطئ اللهم إلا قمم التلال الزرقاء التي بدت بيضاء كأنها تَوَجَّتْهَا الثلوج ، كما تراءت له السحب كما لو كانت جبالات عالية من الثلج فوق القمم .

ازداد البحر قتامة ، وتشكل الضوء على هيئة منشورات ثلاثية في الماء . إن الآلاف التي لا تُعدُّ ولا تُحصى من نقاط وبقع العوالق المكونة من كائنات حيوانية أو نباتية صغيرة معلقة قد انمَحَّت الآن بتأثير ضوء الشمس الساطعة ، ولم يعد العجوز يرى سوى المنشورات الضوئية التي تبدو ممتدة إلى أعماقٍ سحيقة عبر المياه الزرقاء مع حباله الغائصة فيها إلى مسافة تبلغ الميل عمقاً .

كان الصيادون يطلقون على الأسماك من نوع ذلك السرب اسم « التونة » ولا يميزون بينها بأسمائها الصحيحة إلا عندما يبيعونها في الأسواق أو يعدون منها الطعام .

اشتدت حرارة الشمس الآن ، وأحس العجوز بلسعتها في قفاه ، وشعر بالعرق يقطر ويسيل هابطاً إلى ظهره وهو يضرب بمجدافيه في الماء .
وحدّث نفسه قائلاً :

- يمكنني أن أدع المركب ينساب مع التيار ، وأخلد إلى النوم بعد أن

أُثبِتْ أنشوطة من الحبل حول إصبع قدمي ليوقظني في الوقت المناسب ،
ولكن اليوم يكون قد مضى خمسة وثمانون يوماً ، ولا بد أن أظفر فيه بصيد
جيد .

وفي هذه اللحظة لمح ، وهو يرقب حباله ، عصاً من عِصيه الخضر
البارزة فوق الماء تنغمس بشدة ، فقال بصوت مسموع :

- نعم . . نعم . .

أخرج مجدافيه من الماء وأدخلهما إلى المركب بدون أن يتزحزح من مكانه .
ومضى إلى الحبل فأمسك به في رفق بين إبهام وسبابة يده اليمنى ، لم يحس
أى توتر ولا أى ثقل ، فأمسك الحبل بخفة .

ثم تكرر ما حدث مرة أخرى ، وكانت جَذْبَةً متردة ، فلم تكن عنيفة
ولا خفيفة ، ففهم ما هنالك تماماً .

كانت هناك على عمق ستمائة قدم سمكة « مرلين » (سمك إقيانوسى
ضخم) تلتهم السردين الذى يغطى طرف وساق الخطاف الذى يبرز من
رأس سمكة التونة الصغيرة .

أمسك العجوز الحبل بيده اليسرى في رفق وتؤدة ، وحرره من العصا
ليجربى بين أصابعه بدون أن تشعر السمكة بأى توتر .

وحدّث العجوز نفسه قائلاً :

- عند ذلك العمق السحيق ، لا بد أن يكون فم السمكة ضخماً .

وأضاف قائلاً :

- تناوليها أيتها السمكة . . تناوليها . . أرجوكِ تناوليها . كم هى أسماك

طازجة وأنت على عمق ستائة قدم في الماء البارد الحالك السواد . . قومي
بجولة أخرى في الظلام ، وعودي لتناولها .

شعر بجذبة خفيفة رقيقة ، ثم بأخرى أشد منها ، حيث إنه من الصعب
أن تخلص رأس السردينة من الخطاف .

ثم لم يعد يشعر بشيء .

قال العجوز بصوت عالٍ :

- تَعَالَيْ . .

واسترسل قائلاً :

- قومي بجولة أخرى ، تشممها فقط . . أليست لذيدة ؟ تناولها الآن
ثم ستظفرين بعد ذلك بالتونة جافة وباردة وشهية . . لا تحجلي أيتها
السمكة . . تناولها .

انتظر وهو ممسك بالحبل بين إبهامه وسبابته ، وراح يرقبه ويرقب الحبال
الأخرى في نفس الوقت ، لعل السمكة تسبح صاعدة أو هابطة .
ثم جاءت الجذبة الخفيفة الرقيقة مرة أخرى .

فصاح العجوز :

- ستأخذها .

ثم قال :

- اللهم أَعْنُهَا لتأخذها .

غير أن السمكة لم تأخذها ، بل ابتعدت عنها . . ولم تعد أصابع
العجوز تحس شيئاً .

وقال العجوز :

- لا أظن أنها ابتعدت . . الله وحده يعلم . . وقد تكون في جولة . .
وربما عانت من أحد الخطاطيف قبل ذلك ، ومازالت تتذكر شيئاً منه .

ثم شعر بلمسة خفيفة في الحبل ، فجرفته السعادة وقال :

- لم تكن سوى جولة قامت بها .

وهمس لنفسه :

- ستناولها .

غمرته السعادة وهو يشعر بالجذبة الخفيفة ، ثم أحس بشيء ثقيل . .
أثقل مما يتصور .

كان ذلك بسبب ثقل السمكة ، فأرختي العنان للحبل ، وجعله ينساب
هابطاً إلى أسفل ، وفك معه إحدى اللَّفَّتَيْنِ الاحتياطيتين . وبينما كان الحبل
يهبط من بين أصابع الرجل العجوز ، كان لا يزال يشعر بالثقل الكبير ،
برغم أن الإحساس بالضغط على الإبهام والسبابة كان ضئيلاً .

قال العجوز :

- آية سمكة هذه ؟ . . إن الخطاب في جانبي فمها الآن ، وهي تصعد
معه إلى أعلى .

ثم فكر بينه وبين نفسه بأنها ستستدير وتبتلعه .

لم يقل ذلك ؛ لأنه كان يعتقد أن الإنسان إذا تحدث عن شيء من الخير
مُقبل عليه ، فربما لا يُقبل ذلك الخير أبداً .

كان يعلم مدى ضخامة تلك السمكة ، وفكر في أنها تتحرك في الأعماق المظلمة ، وسمكة التونة تعترض فمها .

وفي تلك اللحظة أحس أن حركة السمكة قد توقفت ، ولكن ثقلها مازال موجوداً .

ثم ازداد الثقل فأرخی العنان للحبل أكثر مما كان . وشد من ضغط إبهامه وسبابته للحظة ، فشعر بزيادة الوزن ، وأن هناك هبوطاً إلى أسفل .

وقال الرجل :

- لقد تناولتها . . والآن سأجعلها تأكلها جيداً .

ترك الحبل ينزلق من بين أصبعيه ، في حين راح يثبت بيده اليسرى الطرف السائب من اللفتين الاحتياطيتين إلى أنشودة اللفتين الخاصةتين بالحبل التالي ، إنه الآن على أهبة الاستعداد ، فلديه ثلاث لفائف احتياطية من الحبال ، طول كل واحدة منها يبلغ مائتين وأربعين قدماً ، بالإضافة إلى اللفة التي يستعملها حالياً .

وصاح الرجل :

- كليها . . كليها جيداً .

ثم قال :

- كليها حتى يخترق طرف الخطاف قلبك ويقضى عليك . اصعدى في يسر ، ودعيني أطعنك بالرمح . حسناً . . هل أنت متأهبة الآن ؟ هل طال وقت استمتاعك بهائدة الطعام ؟

وصاح عالياً :

- الآن !

ثم جذب الحبل بيديه الاثنتين فاستطاع أن يرفع الحبل إلى مدى ياردة ،
ثم أخذ يجذب ويجذب وهو يتأرجح مع كل ذراع بالتبادل مستجمعاً كل
قوى ذراعيه وجسده .

غير أنه لم يحدث شيء .

لقد تحركت السمكة مبتعدة في هواده ، ولم يستطع العجوز أن يرفعها
بوصة واحدة .

كان حبله قوياً ، وقد صنّع خصيصاً من أجل الأسماك الثقيلة . أمسك
الرجل بالحبل وأسنده إلى ظهره حتى أصبح مشدوداً إلى درجة أن حبيبات
الماء كانت تقفز منه ، ثم بدأ يسمع للحبل هسهسة في الماء ، وكان مازال
ممسكاً به ، وازداد التصاقاً بمقعد التجديف وهو ينحني بكل جسمه في اتجاه
مضاد للجذب .

بدأ المركب يتحرك صوب الشمال الخربى .

وتحركت السمكة بثبات ، وسارا معاً في المياه الهادئة .

كانت بقية الحبال لا تزال تحمل طعومها في المياه ، بدون أن يكون هناك
شيء يستوجب العمل .

قال العجوز بصوت مرتفع :

- كم وددت أن يكون الصبي معي .

ثم أردف :

- إن سمكة تسحبني ، وأنا الشيء الصغير المسحوب . كان في إمكاني أن أسرع بجذب الحبل ، غير أن السمكة قد تفلت حيثئذ منه . يجب أن أمسك بها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وأن أرخي لها العنان طالما كان ذلك أمراً من الواجب أن أفعله . . حمداً لله ، إن السمكة تمضى قدماً ولا تهبط إلى أسفل .

وأضاف قائلاً لنفسه :

- ماذا عساني أفعل لو أن السمكة قررت أن تهبط إلى أسفل ؟ لست أعلم . ماذا سأفعل لو أنها غاصت فجأة وماتت ؟ لا أدري . ولكنني سأفعل شيئاً . هناك أشياء كثيرة يمكنني أن أفعلها .

شد العجوز الحبل إلى ظهره ، وراقب ميله في المياه ، في حين كانت المركب تمضى في طريقها نحو الشمال الغربي .

ودار بخلد العجوز أن ذلك سيقتله ، إنه لا يمكنه أن يظل على تلك الحال إلى الأبد .

مضت أربع ساعات والسمكة مازالت تسيح بثبات موغلة في البحر وهي تقطر المركب ، وكان العجوز ملتصقاً بقوة إلى مقعد التجديف والحبل مشدود إلى ظهره .

وقال لنفسه :

- كان الوقت ظهراً عندما اصطدتها بالخطاف ، ولم أرها قط .

وكان قد دفع بقبعته المصنوعة من القش بقوة فوق رأسه قبل أن يوقع السمكة في شرك الخطاف الذي نصبه لها ، وقد آلم القش جبهته من جراء

احتكاكه بها ، وقد استبد به العطش أيضاً ، فهبط فوق ركبته محاذراً ألا يهتز منه الحبل ويرتج ، وزحف قدر إمكانه حتى حنية المركب ، ومدَّ إحدى يديه لتصل إلى قارورة الماء ، ففتحتها وشرب منها قليلاً ، ثم استراح عند الحنية جالساً بين الجزء الأدنى من الصارى والشرع ، وحاول ألا يفكر ، بل آثر أن يوجه كل طاقته إلى الثبات والجلد والصبر .

ثم نظر خلفه فلم تراء له أية أرض ظاهرة . فقال لنفسه :

- هذا لا يهم . . فلطالما جئت من « هافانا » ساعة الأصيل في ضوء الشفق الأحمر الذى تتركه وراءها الشمس وهى تنتقل إلى الضفة الغربية من إقيانوس السماء . ولا تزال أمامى ساعتان قبل أن تغرب الشمس ، وقد تصعد السمكة قبل ذلك ، فإذا لم تفعل فلعلها تصعد عندما يبزغ القمر ، فإذا لم تفعل فلعلها تصعد مع شروق الشمس . ليس لدى أية تخلصات فى عضلاتى ، وأشعر أننى قوى . إنها السمكة التى تعانى من الخطاف فى فمها . . ولكن أية سمكة تلك التى تجزنى بهذا الشكل ؟ لا بد أن فمها مغلق بإحكام حول السلك . كم أثوق إلى رؤيتها ! أود أن أشاهدها ولو مرة واحدة فقط حتى أعرف من يقف ضدى .

لم تغير السمكة من خط سيرها ولا اتجاهها طوال تلك الليلة ، كما أدرك العجوز ذلك من مراقبته للنجوم .

اشتد البرد بعد أن غربت الشمس ، وجف عرق الرجل العجوز ، فأحس به بارداً فوق ظهره وذراعيه وساقيه المعروقتين .

وكان قد التقط فى أثناء النهار الكيس الذى يغطى به صندوق الطعم ونشره فى الشمس ليحجف . ولما غربت الشمس ربطه حول عنقه ، وجعله

يتدلى فوق ظهره ، ودفع به تحت الحبل الذى كان يلتف الآن حول كتفيه ، فأصبح وسادة للحبل ، ووجد طريقه لينحنى إلى الأمام قبالة حنية المركب ، فكان ذلك مريحاً بالنسبة إليه ، وفي الواقع كان ذلك الوضع أكثر احتمالاً ، ولكنه اعتبره مريحاً تقريباً .

وقال لنفسه :

لا يمكننى أن أصنع شيئاً مع هذه السمكة ، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئاً معى طالما بقيت على تلك الحال .

نهض من مكانه ذات مرة واستوى واقفاً ، وبأل من فوق حافة المركب ، وتطلع إلى النجوم ليتحسس طريقه .

وكان الحبل المتدلى من كتفيه إلى الماء يبدو كشريط ضيق متألق من الوميض الفوسفورى .

أبطأ المركب في سيره الآن ، وكانت أضواء « هافانا » تبدو خافتة ، فأدرك أن التيار كان متجهاً بها صوب الشرق .

وقال في نفسه :

... إذا اختفت أضواء « هافانا » عن ناظرى فلا بد أننا موعلون في اتجاه الشرق .

ثم استلذذ قائلاً :

... لأنه لو كانت السمكة سائرة في الطريق الصحيح لوجب أن أرى أضواء « هافانا » لساعات أخرى .

وأردف قائلاً :

- إنى لا أعلم كيف ستسفر النتائج بين فريقى « البيسبول » الكبيرين . . كم يكون رائعاً أن أعلم ذلك من جهاز راديو وددت أن أملكه !

ثم عاود الحديث مع نفسه قائلاً :

- فكر دائماً فيما أنت فيه . . فكر فيما تفعله . . يجب ألا ترتكب حماقة .

وقال بصوت عالٍ :

- وددت أن يكون الصبى معى ليعاوننى ، وليرى ذلك الموقف ، يجب ألا يبقى المرء وحيداً إذا تقدمت سنه ، ولكن هذا لا يمكن تلافيه .

وهمس العجوز لنفسه :

- يجب أن أتذكر تناول التونة قبل أن تفسد ، حتى أحتفظ بنفسى قوياً . . وتذكّر أنك يجب أن تأكلها فى الصباح مهما قلت شهيتك إزاءها . . تَذَكَّرْ .

وفى أثناء الليل ، طاف زوج من الدلافين حول المركب ، واستطاع أن يسمع أصواتهما وهما يتمايلان ويتقلبان ويترنحان ويتقافزان مع قدرته على التمييز بين الصوت الذى يطلقه الذكر ، وصوت الأنثى .

وقال لنفسه :

- ما أبدعها ! إنهما يتلاعبان ويمزحان ، ويجب كل منهما الآخر . . إنهما إخوة لنا ، كالأسماك الطائرة .

ولم يلبث أن شعر بالإشفاق على السمكة الضخمة التى علقته بخطافه .

وحدث نفسه قائلاً :

- إنها سمكة عجيبة وغريبة ! من يدري كم تبلغ من العمر . لم يحدث قط في حياتي أن ظفرت بسمكة بمثل تلك القوة ، ولا بواحدة تصرفت بهذا السلوك الغريب . . . ربما كانت أمكر من أن تقفز . إنها تستطيع أن تدمرنى إذا قفزت ، أو إذا هاجمتنى هجوماً جامحاً عنيفاً مسعوراً ، أو لعلها تعرضت كثيراً من قبل للخطاطيف فتعلمت من ذلك كيف تقاوم وتقاتل ، ولكن أنى لها أن تعرف أنها تُنازل رجلاً واحداً بمفرده ، وأنه رجل عجوز ؟ ترى ماذا يكون حجم تلك السمكة الضخمة ؟ وكم تدر من ربح في السوق إذا كانت ذات لحم طيب ؟ لقد تناولت الطُّعم كسمكة من الذكور ، كما تسحبني مثلما يفعل الذكر ، وتقاتل بدون أن تُصاب بذعر أو هلع ، وإنى لأتعجب ، أهي تسلك هذا وفقاً لخطة لديها أم أنها تناضل يائسة مثلى ؟

وتذكر يوماً وقعت فيه واحدة من زوج من أسماك المرلين الضخمة في شَرَك خطافه ، ومن عادة السمكة الذَّكَر أن تدع الأنثى تتناول طعامها أولاً . وراحت السمكة الأنثى التى علقت بالخطاف تناضل بضراوة مذعورة يائسة ، وسرعان ما أنهكها العراك ، واستنفد قواها .

لم يتخلَّ الذكر عنها ، وظل باقياً بجانبها طوال الوقت ، وهو يعبر الحبل ماراً فوقه ، ويطفو معها إلى سطح الماء ، وبقى الذكر قريباً منها حتى خشى الرجل العجوز أن يقطع الحبل بذيله الذى كان حاداً كالمنجل ، ويشبهه في حجمه وشكله . وعندما طعنها العجوز بالرمح ، وضربها بهراوة ، ثم أمسك بمخلب المرساة ذى السطح الذى يشبه ورق السنفرة ، وعاود ضربها فوق رأسها حتى تحول لونها إلى ما يشبه السطوح الخلفية للمرايا ، ورفعها إلى

سطح المركب بمساعدة الصبى - فإن الذكر كان يقف بجانب المركب .

وحين كان العجوز يحمر الخطاف والحبال من السمكة ، ويعد الرمح ، قفز الذكر عالياً بجوار المركب ، لعله كان يريد أن يرى أين ذهبت السمكة الأنثى ، ثم هبط وغاص فى الماء . ويسط زعنفتيه الصدريتين ذواتى اللون الأرجوانى الشاحب على اتساعهما فبدتا مخططتين . . كان منظره بديعاً ، وظل بجانب المركب .

وعاد العجوز يهمس لنفسه فى تأثر :

- كان هذا الذى شاهدته من أقسى الأشياء التى قابلتني ، وأشدها حزناً . . وقد حزن الصبى أيضاً ، وسألنا السمكة الأنثى الصفع ، وذبحناها فوراً بدون إبطاء .

وأستأنف العجوز حديثه بصوت مرتفع :

- وددت أن يكون الصبى معي .

وأسند نفسه على الألواح الخشبية المستديرة عند الحنية ، وشعر بقوة السمكة الضخمة من شدة توتر الحبل المعقود عبر كتفيه ، والمركب يجرى فى الاتجاه الذى اختارته السمكة .

وعاد يفكر قائلاً :

- كان على السمكة أن تختار على أثر غدري بها .

لقد اختارت أن تمكث فى الماء القاتم العميق بعيداً عن جميع الشرك والفضاخ ووسائل الغدر .

ووقع اختياري على أن أمضى معها لأعثر عليها بعيداً عن الناس جميعاً ،
فيما وراء البشر أجمعين على وجه هذه البسيطة ، وها نحن الآن قد ارتبطنا معاً
بمصير واحد منذ الظهيرة ، ولا من معين أو مغيث لأى منا .

وقال هامساً :

- ربما لم يكن خليقاً بى أن أكون صياداً ، ولكننى ولدت من أجل تلك
المهنة .

وفجأة قال :

- لا شك أننى يجب أن أتذكر أن آكل التونة بعد أن يبرغ الضوء .

وحدث قبل طلوع النهار أن شيئاً مآ قد قضم طعم أحد الحبال المتدلية
خلفه ، وسمع صوت العصا تنكسر ، واندفع الحبل فوق الحافة العليا من
جانب المركب .

أخرج سكينه من غمدها تحت جناح الظلام ، واحتمل كل ثقل الحبل
المعلقة فيه السمكة الضخمة على كتفه اليسرى ، وانحنى إلى الخلف ، وقطع
الحبل فوق خشب الحافة العليا من جانب المركب ، ثم قطع الحبل الآخر
القريب منه ، وأحكم ربط الطرفين السائبين لحبلي اللفتين الاحتياطيتين
بعضهما ببعض في الظلام فجعلها حبالاً واحداً .

كان يعمل بإحدى يديه بمهارة فائقة ، وضغط بقدمه على لفات الحبال
لتثبت مكانها ريثما يربط الحبال جيداً . أصبح لديه الآن ست لفات من
الحبال الاحتياطية . كان هناك لفتان من الحبال تتصلان بكل طعم من التى
يفصل بعضها عن بعض ، ولفتان أخرَيان متصلتان بالحبل المنتهى بالطعم

ذى الخطاف الذى ابتلعه السمكة ، وأصبحت كلها مرتبطة بعضها ببعض .

وحدّث نفسه قائلاً :

- عند بزوغ الفجر ، سأقطع الحبل الذى ينساب إلى عمق مائتين وأربعين قدماً وأصله باللفات الاحتياطية . . كنت على وشك أن أفقد ألفاً ومائتى قدم من الحبال القطالونية ، والخطاطيف ، والأدوات المرشدة التى تقود السمك إلى الشُّرك . كل هذا يمكن تعويضه . ولكن ما الذى يعوضنى عن هذه السمكة إذا علقت بعض الأسماك بخطاطيفى وقطعت حبل تلك السمكة الكبيرة ؟ إننى لا أدرى ما نوع السمكة التى ابتلعت الطعم الآن . قد تكون من سمك « المرلين » ، أو من نوع « أبى سيف » (سمك بحرى طويل المنقار) ، أو من سمك « القرش » ، لم أحس بها قط ، ويجب علىّ أن أتخلص منها على وجه السرعة .

ثم أردف بصوت عالٍ :

- كم أتمنى أن يكون الصبى معى !

واسترسل فى حديثه إلى نفسه قائلاً :

- ولكن الصبى ليس معى . . إنك وحدك ، ومن الأفضل لك أن تعمل حتى آخر حبل ، سواء فى الظلام أو فى غيره ، وعليك أن تقطعه ، وأن تربط لفتى الحبال الاحتياطيتين .

وهكذا قام بتنفيذ ذلك ، ولم يكن هذا عملاً سهلاً فى الظلام . وحدث أن اندفعت السمكة بعنف داخل الماء فألقته على وجهه ، وأصيب بجرح

قاطع تحت عينه ، وسال الدم على خده إلى مسافة قصيرة ، ولكنه تجلّط وجف قبل أن يصل إلى ذقنه .

مضى العجوز إلى حنية المركب ، واستند إلى ألواحها الخشبية . وأحكم وضع الكيس حول عنقه ، وحرك الحبل إلى مكان جديد من كتفيه ، وما إن فعل ذلك حتى شعر جيداً بالسמكة تجذبه ، ومد يده في الماء ليدرك مدى تقدم المركب وهو يشق المياه .
وقال متسائلاً :

- لماذا جعلت السمكة المركب يتمايل هكذا في الماء ؟ لا بد أن الحبل قد انزلق عن ظهرها الضخم الذي يشبه التل ، ولكنني واثق من أن ظهرها لا يستشعر الألم الحاد الذي أعانيه في ظهري ، بيد أنها لا تستطيع أن تجر المركب إلى الأبد ، مهما بلغت ضخامتها . . . والآن تبدد كل شيء قد يثير المتاعب ، ولديّ احتياطي هائل من الحبال ، وهذا كل ما يحتاج إليه المرء .
ثم استرسل قائلاً :

- أيتها السمكة ، سوف أبقى معك حتى الموت .

وقال لنفسه وهو ينتظر إطلالة الصباح :

- أعتقد أنها سوف تمكث معي هي الأخرى بالمثل .

اشتدت البرودة في الهزيع الأخير من الليل قبيل انبلاج الفجر ، فالتصق العجوز بخشب المركب لعله يحس بشيء من الدفء .

ثم قال :

- إن لي جَلْدًا وصبراً قَدَرُ ما لدى هذه السمكة .

ومع انبثاق أول خيط من ضوء الفجر ، كان الحبل ممتدًا إلى عمق الماء ،
والمركب يتحرك بثبات .

وحين بدأت حافة الشمس تبرز ، كان الحبل على الكتف اليمنى للرجل
العجوز .

وحدّث العجوز نفسه قائلاً :

- إن السمكة تتجه شمالاً ، أما التيار فإنه يمضى بنا نحو الشرق . . كم
أتوق إلى أن تحول اتجاهها لتسبح مع التيار ! إنها في هذه الحالة يكون قد
أصابها الإعياء .

وحين واصلت الشمس ارتفاعها ، أدرك العجوز أن السمكة لم يحل بها
التعب بعد .

كانت هناك علامة واحدة واحدة ، فميل الحبل في الماء كان يشير إلى أن
السمكة قد أصبحت تسبح على عمق أقل عن ذى قبل ، إن ذلك لا يعنى
على نحو قاطع أنها تزمع أن تقفز ، ولكنها من الجائز أن تفعل ذلك .
وقال العجوز :

- ليت الله يدعها تقفز ، إن عندى من الحبال ما يكفى للتعامل معها .

ثم استطرد قائلاً :

- إننى إذا استطعت أن أزيد من توتر الحبل قليلاً فسيؤذيها ذلك ،
وستقفز إلى أعلى ، ولكن ها هو ذا ضوء النهار يغمر المكان ، وقد يجعلها
ذلك تقفز لتملأ مثنائها الموجودتين على جانبي عمودها الفقرى بالهواء ، ثم
لا تستطيع بعدئذ أن تغوص في أعماق الماء فتموت .

حاول أن يزيد من توتر الحبل ، غير أن الحبل كان مشدوداً إلى أقصاه منذ أن ابتلعت السمكة الخطاف ، وشعر بالألم الناجم من الحبل الخشن وهو يحز في كتفيه عندما انحنى إلى الخلف ليجذبه ، وأدرك أنه لن يستطيع أن يزيد من توتره ، ويجب ألا يهزه هزاً عنيفاً ؛ إذ أن كل هزة من شأنها أن توسع الشق الذى أحدثه الخطاف في حلق السمكة ، فإذا قفزت فلربما تلتقى بالخطاف بعيداً عنها وتفلت منها .

وقال العجوز لنفسه :

- وعلى أية حال ، فإننى أشعر الآن بتحسن عن ذى قبل مع الشمس المشرقة ، على أنه ينبغي لى ألا أهدق فيها .

كانت هناك بعض الأعشاب والطحالب البحرية عالقة بالحبل ، بيد أن الرجل العجوز كان يدرك أنها تضيف إغراء للحبل وهو على هذه الحال ، واعترفته موجة من السرور لدى ذلك الخاطر . إنها أعشاب الخليج وطحالبه البحرية التى ينبعث منها وميض فوسفورى فى الظلام .

وتوجه العجوز بحديثه إلى السمكة :

- أيتها السمكة ، إنى أحبك ، وأكئن لك كثيراً من الاحترام ، ولكننى سأصارعك حتى الموت قبل أن ينتهى هذا اليوم .

ثم قال :

- دعونا نأمل ذلك .

أقبل طائر صغير نحو المركب ، وكان قادماً من الشمال . . كان من نوع الهازجة ، وهو طائر مغرد ، وحلّق على ارتفاع منخفض جداً من الماء . وأدرك العجوز أن الطائر قد أخذ منه الأعياء ، وهده التعب .



الطائر على مؤخرة المركب ، واستراح هناك ، ثم طار مخلقاً
حول رأس الرجل العجوز ، ثم وقف على الحبل حيث وجد
ذلك أكثر راحة له .



قال العجوز للطائر متسائلاً :

- كم تبلغ من العمر ؟ . . أهذه رحلتك الأولى ؟

تطلع الطائر إليه عندما تحدث . كان مُتعباً ومرهقاً حتى ليفحص الحبل
ويختبره ، وأخذ يتمايل ويترنح فوقه في حين كانت قدماه الرقيقان تتشبثان به
بشدة .

قال له العجوز :

- إنه ثابت . . إنه ثابت إلى أقصى حد . . ما كان لك أن تبدو مُنهمكاً
هكذا في ليلة كهذه بلا ريح . . لماذا تأتي الطيور إلى هنا ؟
وحدث العجوز نفسه قائلاً :

- إن الصقور تفد إلى البحر لتلتقى بمثل تلك الطيور .

بيد أنه لم يقل شيئاً من ذلك للطائر الذي لا يستطيع أن يفهمه بأية
حال ، والذي سرعان ما سيعرف عن الصقور ما فيه الكفاية .

ثم قال للطائر :

- استرخ جيداً أيها الطائر الصغير ثم امضِ إلى حال سبيلك ، وخذْ فرصتك كأى إنسان ، أو طائر أو سمكة .

وشجعه ذلك على الحديث ؛ لأن ظهره كان قد تصلب فى أثناء الليل ، واشتد به الألم الآن .

قال مُحدِّثاً الطائر مرة أخرى :

- فلتبقِ فى بيتى إذا راقَ لك ذلك .

ثم أردف :

- إننى آسف لعدم استطاعتي نشر الشراع لأخذك فيه مع خطرات النسيم هذه ، ولكننى مع صديق .

وفجأة تمايل المركب حين جذبت السمكة الحبل على حين غرة فألقتْ بالعجوز فى حنية المركب ، وكادت تقذف به خارجه لو لم يتساند ويستجمع قواه ، وأرختى للحبل بعض العنان .

انطلق الطائر محلقاً فى الهواء حين اهتز الحبل ، ولم يره الرجل العجوز الذى راح يتحسس الحبل بيمناه فى حرص شديد ، ولاحظ أن يده تنزف منها الدماء .

فقال بصوت عالٍ :

- إذن فهناك شىء قد ألم السمكة .

وأخذ يجذب الحبل مرة أخرى لعله يقلب السمكة ، وحين بلغ توتر الحبل أشده مضت فى ثبات فى اتجاه مضاد لجذب الحبل .

فعاد يخاطب السمكة :

- إذن فإنك مُحْسِنٌ بالألم الآن أيتها السمكة ، ويعلم الله أنني أحس بالألم أيضاً .

وراح الآن يتلفت حوله بحثاً عن الطائر الذي راقته له صحبته ، فلم يجد له أثراً .

وقال العجوز مناجياً الطائر :

- إنك لم تُطِلِ الإقامة هنا ، ولكن الإقامة فيما أنت ماضٍ إليه أشد قسوة إلى أن تدرك الشاطئ .

عاد العجوز يحدث نفسه :

- كيف تركت السمكة تجرحني هكذا بهذه الجذبة السريعة المفاجئة التي قامت بها ؟ لا بد أنني دخلت في دائرة الغباء ، أو لعلى كنت أبحث عن الطائر الصغير وأفكر فيه ، والآن سأنتبه إلى عملي ، ثم ينبغي لي أن أكل التونة حتى لا تخور قواي .

وقال بصوت مرتفع :

- وددت أن يكون الصبى هنا ، ومن لي ببعض الملح ؟ . .

نقل ثقل الحبل إلى كتفه اليسرى ، وانحنى بحذر فغسل يده في مياه المحيط ، وأبقى عليها مغمورة فيها لأكثر من دقيقة وهو يراقب الدم يسيل منها ، وحركة الماء المتواصلة في اتجاه مضاد ليده والمركب تمضي في طريقها .

ثم قال :

- لقد تباطأت السمكة في سيرها كثيراً .

وود العجوز أن يدع يده في الماء المالح لمدة أطول ، غير أنه كان يخشى أن تُعاوِد السمكة جذب الحبل فجأة ، فاستوى واقفاً على قدميه وعرض يده للشمس . كان جرحاً قطعياً من الحبل الذي انغرس في لحمه ، بيد أن الإصابة كانت في الجزء من يده الذي يعمل به ، إنه يعرف أنه يحتاج إلى يديه معاً ، إلى أن يتمكن من رفع السمكة من الماء ، وأنه لم يكن يود أن تجرح يده قبل أن يبدأ هذه المهمة .

وحين جفت يده قال :

- الآن يجب أن أكل سمكة التونة الصغيرة ، يمكنني أن أجذبها بالرمح ، وأن أكلها هنا في هدوء .

انحنى إلى أسفل وسحب سمكة التونة من مؤخرة المركب بالرمح ، وجرها نحوه متجنباً لفات الحبال . . وشد الحبل إلى كتفه اليسرى مرة أخرى ، واستند على ذراعه ويده اليسرى ، وانتزع سمكة التونة من الرمح الذي أعاده بعد ذلك إلى مكانه . . وضع إحدى ركبتيه فوق السمكة ، وشرع يقطع شرائح طولية من اللحم الأحمر القاتم من السطح العلوى لرأس السمكة حتى ذيلها ، وكانت الشرائح على شكل أوتاد ، ثم أخذ يقطعها بدءاً من العمود الفقري حتى حافة البطن ، وعندما انتهى من قطع ست شرائح نشرها على الألواح الخشبية لحنية المركب ، ومسح سكينه في « بنطلونه » ، ثم حمل بقايا جسم السمكة من ذيلها ، وأسقطها في الماء وهو يقول :

- لا أعتقد أنني أستطيع أن أكل سمكة كاملة .

ثم أعمل سكينه في إحدى الشرائح . . كان يشعر بقوة جذب الحبل

الشديدة الوطأة ، وتقلصت يده اليسرى ، فقد توقفت متصلة من الحبل الثقيل ، ونظر إليها باشمئزاز .

وقال :

- من أى صنف أنت أيتها اليد ، تقلصى إذا شئت ، ولتتحولى إلى مخلب ، فلن يفيدك هذا بشيء ، ولن تفلتى من العمل .

نظر العجوز إلى المياه القائمة على امتداد الحبل المائل وقال :

- تعالى .

ثم قال :

- تناول طعامك الآن فإن ذلك سيقوى يدك ، والخطأ ليس خطأ يدك ، فإنك أنت الذى قضيت ساعات عديدة مع السمكة . ويمكنك أن تمكث معها إلى الأبد .

وأردف قائلاً :

- كُل التونة الآن .

التقط قطعة منها ، ووضعها فى فمه ، وجعل يلوكها ببطء ، فوجدها ذات مذاق طيب .

وعاود الحديث مع نفسه قائلاً :

- امضغنها جيداً ، وابتلع كل عصائرها ، ما كان أطيبها إذا تناولتها وعليها قليل من الليمون الحمضى ، أو الليمون العادى ، أو الملح .

ونظر إلى يده المتقلصة التي كانت متصلبة حتى أصبحت قريبة من التيبس الذى يصيب الأجساد عند الموت فقال :

- بِمَ تشعرين الآن أيتها اليد ؟ سأكل مزيداً من الطعام من أجلك .

تناول الجزء المتبقى من الشريحة التي كان قد شطرها نصفين ، وجعل يمضغه بعناية ، ثم بصق الجلد الذى كان يغطيه .

وتطلع إلى يده قائلاً :

- كيف حالك أيتها اليد ؟ أما آنَ الوقت لكى نعرف ؟

وتناول قطعة أخرى كاملة من سمكة التونة ومضغها .

وقال لنفسه :

- إنها سمكة قوية ممتلئة باللحم . كنتُ محظوظاً أن أظفر بها بدلاً من الدلفين ، فلحم الدلفين مفرط في الحلاوة ، أما هذه فحلاوتها خفيفة جداً ، ولا تزال فائدتها كامنة فيها .

- ومع ذلك ، فلا معنى لأن أكون غير عمليّ ، كنت أرجو أن يكون معى بعض الملح ، ولا أدري إن كانت الشمس ستفسد ما تبقى من الشرائح أو تجففها ؛ ولذا فمن الأفضل أن أتناولها كلها ، برغم أننى لست جائعاً .

وأكمل حديثه لنفسه :

- إن سمكتى الضخمة هادئة ، وسيرها في الماء ثابت منتظم ، سأكل جميع الشرائح ، ثم سأكون مستعداً .

وعاد يتفردس في يده قائلاً :

- اصبرى أيتها اليد ، فإننى أصنع ذلك من أجلك .

ثم واصل الحديث مع نفسه :

- أود أن أكون متعاطفاً مع السمكة ، فهى أخت لى ، ولكن لا بد من قتلها ، وأن أحتفظ بقواى لأتمكن من القيام بهذه المهمة .

تناول العجوز كل الشرائح الوتدية الشكل ببطء وفقاً لما أملاه عليه عقله .
شد العجوز قامته ماسحاً يده فى « بنطلونه » .

ثم وجه حديثه إلى يده قائلاً :

- أيتها اليد . . تستطيعين الآن أن تتركى الحبل ، وستمسك يمنى به وحدها حتى تتوقفى عن هذا الهراء ، وذلك السلوك الأحمق .

وضع قدمه اليسرى على الحبل الثقيل الذى كانت يده اليسرى ممسكة به ،
وألقي بظهره إلى الوراء فى اتجاه مضاد لقوة الشد ، وقال :

- أعانى الله ليخلصنى من تقلص يدى ؛ لأننى لا أعرف ما تنوى السمكة أن تفعله ، ولكنها تبدو هادئة وتسير وفق خطتها .

ثم تساءل :

- أمأ أنا فما هى خطتى ؟ يجب أن أرتجلها ، وأن تفوق خطتها ؛ لأنها سمكة بالغة الضخامة ، إذا قفزت فسيكون فى إمكانى أن أصرعها ، ولكنها باقية فى الأعماق ، وحيثند سأظل باقياً معها .

وانثنى العجوز إلى بنطلونه يحك فيه يده المتقلصة ، وحاول أن يلين أصابعه ، ولكنها أبت أن تنفرج .

وجال بخاطره أن الشمس ستجعلها تنفرج ، أو لعل ذلك سيحدث بعد
أن يهضم لحم التونة النيء القوي .

ثم قال :

- وإذا جَدَّ الجِد ، فسأفتح يدي مهما كبدي ذلك من ثمن ، غير أنني
لا أود أن أبسطها الآن بالقوة ، إنني سأدعها تنفتح بنفسها طوعاً بدون
إكراه ، وفي الواقع أنني ظلمتها وأسأت معاملتها وتعسفت معها كثيراً في
الليل ، حين اضطررت إلى فك وحل تلك الحبال .

تطلع العجوز عبر البحر فأدرك مدى ما فيه من وحدة الآن ، ولكنه كان
يستطيع أن يرى المنشورات الضوئية المنعكسة في المياه القائمة العميقة ،
والحبل الممتد في الطليعة ، والذي يمضي قدماً إلى الأمام ، والتموجات
الغريبة للماء وسط الطبيعة الهادئة الساكنة .

وكانت السحب تتجمع في ذلك الوقت إيذاناً ببدء هبوب الرياح
التجارية .

نظر العجوز أمامه فشاهد سرباً من البط البري فوق الماء يشق طريقه
نحو السماء ، ثم يصبح ضبابياً ، ويعاود شق طريقه مرة أخرى في أجواز
الفضاء .

إنه لم يعرف إنساناً عانى مثل تلك الوحدة في البحر .

وتذكر كيف أن بعض الرجال كانوا يخشون أن يغيبوا عن مدى البصر من
الشاطئ في مركب صغيره ، وهم يعلمون أنهم في أشهرٍ يكثر فيها مفاجآت
سوء الجو . وهو الآن وسط أشهر الأعاصير المصحوبة بالأمطار والرعود
وومضات البرق .

ولكن عندما تخلو تلك الأشهر من الأعاصير ، فإن الطقس في أثنائها يكون أفضل من كل أشهر العام .

وقال العجوز في نفسه :

- إذا كان هناك إعصار على وشك الحدوث فإن المرء إذا كان في البحر فإنه يرى دائماً علاماته بادية في السماء لبضعة أيام ، والناس لا ترى ذلك عند الشاطئ ؛ لأنهم لا يستطيعون عندئذ معرفة ما يتطلعون إليه ، كما أن الأرض أيضاً تغير في شكل السحب ، ولكن ليس هناك إعصار قادم الآن .
وتطلّع إلى السماء ، فشاهد أكداً من السحب الدائرية ذات القواعد المسطحة التي توقع في النفس شعوراً بالرضا والابتهاج . ورأى ريشاً رفيعاً في سحب رقيقة شبيهة بالصوف على ارتفاع شاهق في السماء .

وقال :

- ما أرتق هذا النسيم !

ثم أكمل حديثه إلى نفسه قائلاً :

- طقس أنسب لي منك أيتها السمكة .

كانت يده اليسرى مازالت متقلصة ، فحاول أن يفكها على مهل قائلاً :

- إنني أكره التقلص ، إنه خيانة آتية من ذات جسم المرء .

إنه شيءٌ مُذِلُّ مُخْزٍ أمام الآخرين أن يُصاب المرء بالإسهال نتيجة التسمم « البتوميني » الناشئ من تناول الأطعمة المعلبة الفاسدة ، أو يتقيأ بسببه ، ولكن تقلص العضلات ، باعتباره تشنُّجاً فيها يذل الإنسان ، خاصة إذا كان وحيداً .

واستطرد قائلاً :

- لو كان الصبى هنا لاستطاع أن يُدلك ساعدى حتى تنفرج يدي ،
ولكنها لا ريب ستنبسط .

وشعرت يده اليمنى بفارق في درجة انجذاب الحبل قبل أن يشاهد تغير
ميله في الماء .

عندئذ انحني في اتجاه معاكس لجذب الحبل ، وضرب بيده اليسرى على
فخذه بقوة وسرعة ، فرأى الحبل يصعد رويداً رويداً .

قال العجوز :

- ها هي ذى السمكة صاعدة .

ثم قال متوسلاً :

- هيا يا يدي ، أرجو أن تنبسطي .

صعد الحبل إلى أعلى ببطء وثبات ، وبرز ماء البحر على شكل انتفاخ
خارج المركب ، وظهرت السمكة وكأن طولها لا نهاية له ، وتدفق الماء عن
جانبيها .

كانت تلمع وهي تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها ، وظهر رأسها
وظهرها بلون أرجواني قاتم ، وكانت مخططة بخطوط عريضة ذات لون
أرجواني شاحب ، وبدت مقدمة رأسها طويلة أشبه بمضرب « البيسبول »
وقد استندق طرفه كسيفٍ ذى حَدَّين . ورفعت السمكة قامتها من الماء
بطولها الكامل ، ثم عادت إلى الماء برفق كالغواص .

شاهد العجوز ذيلها الضخم كحد المنجل يتدلى في الماء ، والحبل يهبط في أثره .

وقال العجوز :

- إنها أطول من مركبى بقدمين .

كان يرخى الحبل بسرعة وانتظام في الماء ، ولم تكن السمكة مذعورة .

وها هو ذا يحاول بكلتا يديه أن يترك الحبل لها إلى أبعد مدى ، فهو يعرف أنه إذ لم يستطع أن يجد من سرعتها عن طريق جذبها بانتظام ، فإن مثل تلك السمكة قادرة على أن تمضى بالحبل كله وتقطعه في النهاية .

وقال لنفسه هامساً :

- إنها سمكة ضخمة ، ويجب أن أقنعها كي تعود ، وينبغي ألاّ أدعها تعلم مدى قوتها ، وماذا تستطيع أن تفعله إذا مضت في طريقها مسرعة ؟ لو كنت مكانها لتركت كل شيء الآن ، وأمضى قُدماً حتى ينقطع شيء ، ولكن حمداً لله أن الأسماك ليس لها ذكاؤنا نحن الذين نصرعها ، مع أنها أكثر منا نُبالاً وقُدرة .

شاهد العجوز كثيراً من الأسماك الضخمة التي تزن الواحدة منها أكثر من ألف رطل ، وقد ظفر في حياته باثنتين من ذلك الحجم ، ولكنه لم يكن بمفرده قط .

وها هو ذا الآن مازال وحيداً وبعيداً عن مدى الرؤية من الشاطئ .

كانت تلك السمكة أسرع من أكبر سمكة رآها ، وأضخم من أى سمكة سمع عنها .

مازال يد العجوز اليسرى متقلصة كأنها مخلب منقبض لأحد النسور .
استأنف العجوز حديثه إلى نفسه قائلاً :

- ومع ذلك ستبسط يدي المتقلصة . . لا شك أنها ستبسط لتساعد
يدي اليمنى . . هناك ثلاثة أشقاء : السمكة ويَدَاي . يجب أن يزول هذا
التقلص .

تباطأت السمكة في سيرها مرة أخرى ، وعادت إلى سرعتها العادية .
وقال متسائلاً :

- إننى لأتعجب لماذا ففرت السمكة إذن إلى السطح ؟ يبدو أنها قفزت كما
لو كانت تُربنى مدى ضخامة حجمها . وإننى أعرف الآن الطريقة التى
تفكر بها ، وأنا بدورى أريد أن أريها أى نوع من الرجال أنا ، ولكنها قد
تشاهد يدي المتقلصة ، فلأدعها تعتقد أننى رجل أقوى مما أنا عليه ،
وسأكون ذلك الرجل .
وقال لنفسه :

- ليتنى كنت أنا تلك السمكة بكل مواصفاتها وقدراتها وهى تواجه بها
عزيمتى وذكائى لا غير .

استند إلى خشب المركب ليسترىح ، ووطن نفسه على احتمال معاناته
التي يخوضها .

- سبحت السمكة بانتظام وثبات ، وتحرك المركب معها وتبدأ فى المياه
القائمة ، وهبت الريح من الشرق فارتفعت مياه البحر ارتفاعاً ضئيلاً .

وعند قدوم الظهر انفرجت يد العجوز فقال :

- أنباء سيئة لك أيتها السمكة .

وغيّرَ موضع الحبل فوق الأكياس التي تغطى كتفيه .

كان نشيطاً ، ولكنه كان يعانى ، غير أنه لا يسمح للآلام على الإطلاق أن تنال منه .

وحدث نفسه قائلاً :

- لستُ رجلَ دينٍ تقيّاً ورِعاً ، ولكننى أبتهل كثيراً إلى الله وإلى جميع القديسين والقديسات أن أظفر بتلك السمكة .

وشرع يردد صلواته بطريقة آلية ، من أجل موت هذه السمكة برغم غرابتها .

وأحس بالراحة بعد ترديد صلواته . ولو أن آلامه بقيت على حالها أو اشتدت قليلاً ، وانحنى مستنداً إلى الألواح الخشبية لحنية الزورق ، وبدأ يحرك أصابع يده اليسرى بطريقة آلية .

اشتد قيظ الشمس برغم انتشار الرياح اللينة ، وقطرات النسيم الرقيقة .
وقال في نفسه :

- من الأوفق أن أعيد وضع الطعام في الحبل الصغير الباقي عند مؤخر المركب ، حتى إذا ما عزمت السمكة أن تمكث في الماء ليلة أخرى وجدتُ ما أتبلّغ به ، إذ يلزم أن أتناول طعامى مرة أخرى ، أمّا الماء فلم يبق منه في القارورة سوى القليل . . لا أعتقد أننى مستطيعٌ أن أظفر هنا بأكثر من دلفين ، وإذا تناولته دلازجاً فلا غبار على ذلك ، وأود أن تسقط سمكة طائفة على سطح المركب هذه الليلة ، ولكن يعوزنى ضوء أجتذبها به . . إن

السمكة الطائرة تكون شهية إذا تناوَلها المرءُ نيئةً ، ولا حاجة بي إلى تقطيعها ،
ويجب أن أدخر كل قواي الآن . . يا الله لم أكن أعرف أن تلك السمكة بهذه
الضخامة !

ومع ذلك فسأقتلها برغم عظمتها وغرورها وتباهيها .

ثم قال :

- ولو أن هذا ليس من العدل ، ولكنني سأريها ماذا يستطيع الرجل أن
يفعل ، ومدى قوة احتماله .

وسكت هنيهة ، ثم أضاف قائلاً :

- لقد أخبرتُ الصبي أنني رجل عجوز عجيب ، والآن قد آن الأوان
لإثبات ذلك .

إن العجوز قد أثبت ذلك آلاف المرات من قبل ، وما هو ذا الآن يقوم
بإثبات ذلك مرة أخرى . وكانت كل مرة تعتبر جديدة . ولم يحدث قط أن
فكر في الماضي في أثناء خوضه ذلك النضال الجديد .

وقال لنفسه :

- كم أود أن تنام هذه السمكة حتى أنام أنا الآخر ، وأحلم بالأُسود . .
لماذا كانت السباع هي الشيء الرئيسي المتبقى في ذاكرتي ؟

واستطرد قائلاً :

- كفاك تفكيراً أيها الرجل العجوز . . استرح قليلاً مستنداً إلى ألواح
المركب الخشبية ، ولا تفكر في شيء . . إن السمكة تعمل ، أمّا أنت فلا
تعمل إلا قليلاً ، وبأقل جهد .

بدأ وقت الأصيل ، وما زال المركب يتحرك على مهل وبانتظام ، غير أنه كانت هناك الآن سُحُب كثيرة آتية مع النسيم القادم من الشرق . . وزاد الألم الناجم عن حز الحبال في ظهره .

وذات مرة في هذا الأصيل بدأ الحبل يرتفع مرة أخرى ، ولكن السمكة استمرت تسبح في مستوى يعلو قليلاً عما كانت فيه .

تركزت أشعة الشمس على ذراع العجوز اليسرى وكتفه ، وفوق ظهره ، فأدرك أن السمكة غيرت اتجاهها إلى الشمال الشرقى .

ولما كان قد أتيح له أن يرى السمكة في إحدى المرات ، فهو يستطيع أن يتصورها وهي تسبح في الماء بزعنفتيها اللتين نُشِرَتَا على اتساعهما كما لو كانتا جناحين ، في حين كان ذيلها الضخم يشق طريقه في الظلام .

وفكر العجوز قائلاً :

- إننى أتساءل عن مدى استطاعتها أن ترى عند هذا المستوى من العمق داخل الماء ، إن عينها كبيرة ، ويمكن للحصان بعينه الصغرى من عينها أن يرى في الظلام ، وكنت فيما مضى أرى جيداً في الظلام كما ترى القطة ، ولكن ليس في الظلام الدامس .

كانت الشمس ، وتحريكه المستمر لأصابعه قد بسطا يده اليسرى ، الآن انفرجت انفراجاً كاملاً ، وبدأ توترها يخف ، وهز عضلات ظهره لينقل الألم الذى يحدثه الحبل المشدود فوقها إلى موقع آخر قريب من المكان السابق .

وصاح الرجل العجوز :

- إذا لم يكن التعب قد حلَّ بكِ أيتها السمكة فلا شك أنك من أغرب العجائب .

كان الرجل لا يكاد قد يستقيم من التعب ، وأدرك الآن أن الليل لن يلبث أن يجيم على المكان ، وحاول أن يفكر في أشياء أخرى .

جعل العجوز يفكر في مباريات الدوري النهائية ، وكان اهتمامه مركزاً في الناديين الكبيرين ، فهو يعلم أن فريق « يانكي نيويورك » ينازل « نمور ديترويت » .

وقال لنفسه :

- هذا هو اليوم الثاني ، الآن تظهر نتائج « اللعب » . ولكنني يجب أن أضع ثقتي في « ديبادجو » العظيم ، ولا بد أن أكون جديراً به . . ذلك الذى يؤدي كل شيء على أكمل وجه حتى إذا اشتد الألم على عظمة كعبه .

ثم تساءل :

- ترى ما هو ألم عظمة الكعب ؟

وقال :

- مهماز العظم . . إننا لم نصب به . . أترأه يؤلم في كعب المرء ألم الديكة عندما تتصارع ؟ لا أعتقد أنني أستطيع احتمال ذلك ، أو أن أفقد عيناً أو عينين كما تفعل الديكة التى تُفَقِّأ عيونها وهى تُنازل بعضها بعضاً ، ومع ذلك تواصل المعركة . إن الإنسان لا يساوى كثيراً بجانب الطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة ، ومع ذلك كنت أؤثر أن أكون ذلك الحيوان الموجود تحت سطح البحر فى عمق الظلام .

وتحدث الرجل بصوت عال :

- ما لم تقبل أسماك القرش ، أما إذا قَدِمَتْ فليرحم الله هذه السمكة ،
وليرحمنى أنا أيضاً .

ثم سأل نفسه :

- أعتقد أن « ديهادجو » العظيم كان يستطيع أن يمكث مع سمكة كما
أمكث أنا مع تلك السمكة ؟ إننى متأكد أنه يستطيع أن يصمد معها أكثر
منى ، إذ أنه شاب فتى وقوى ، كما أن أباه كان صياداً . . ولكن هل تؤله
عظمة كعبه كثيراً ؟

وصاح قائلاً :

- إننى لا أعرف ؛ إذ لم أُصَبْ قط بألم في عظمة الكعب .

وحين غربت الشمس ، تذكَّر ما يعطيه مزيداً من الثقة ، فها هو ذا قد
استعاد في ذهنه أيام الحانة في « كاسا بلانكا » عندما تبارى في لعبة اليد
الحديدية مع الزنجى العظيم من « ثينفويجوس » والذي كان أقوى عمال
الرصيف الذين يشتغلون بتحميل السفن أو تفريغها ، وقد أمضيا نهراً
كاملاً وليلة بطولها وكُوع كل منهما على خط مرسوم بالطباشير فوق المنضدة ،
في حين كان ساعدهما قائمين إلى أعلى ، وقد اشتدت قبضتا يديهما كُعل على
الأخرى . واستمات كلُّ منهما مُحاولاً ثنئى ساعد الآخر على المنضدة .

كثرت المراهنات عليها ، وجعل الناس يدخلون ويخرجون داخل الحجرة
التي يشع فيها ضوء مصباح الكيروسين ، ونظر « سانتياجو » إلى ذراع ويد
الزنجى ، وتفرس في وجهه .

وكان الحكام يتغيرون كل أربع ساعات بعد مضي الساعات الثماني الأولى ، حتى يستطيع كل منهم أن ينال قسطاً من النوم .

ظفر الدم من تحت أظافر كل منهما ، وحملق كل منهما في عيني الآخر ، وتطلع إلى يدي وساعد منافسه .

وظل المتراهنون عليهما يغدون ويروحون داخل الحجرة ، ويجلسون على مقاعد عالية مستندة إلى الحائط وهم يرقبون الصراع الدائر .

كانت الجدران مصنوعة من الخشب المطلي باللون الأزرق اللامع ، وألقت المصابيح بظلي المتبارين عليها . كان خيال الزنجي ضخماً ، وراح يتحرك على الحائط كلما هزت الريح ذبالات المصابيح ، وراحت كفة كل منهما تتغير إقبالاً وإدباراً طوال الليل ، وكان الناس يسقون الزنجي كئوس الروم (نوع من الخمر) ويشعلون له لفائف التبغ .

وبعد أن احتسى الزنجي الروم ، اشتد ساعده ، وحاول بذل جهد خارق للتغلب على منافسه .

وكاد يظفر مرة بالعجوز ، الذي لم يكن قد تقدمت سنه بعد ، بل كان يُدعى « سانتياجو إل كامبيون » (وتعني بالإسبانية سانتاياجو البطل) ، وتمكن من ثني ساعده نحو ثلاث درجات . غير أن « سانتياجو » استمات حتى استطاع أن يعيد ساعده إلى استقامته الأولى ، وامتلاً ثقة حينئذ بأنه سيفوز على الزنجي الذي كان بطلاً رياضياً عظيماً ورائعاً .

وعندما أطل ضوء النهار أراد المتراهنون أن يعتبروا المباراة قد أسفرت عن تعادلها ، في حين هز الحُكم رأسه ، فاستجمع « سانتياجو » قواه ، وأجبر

ساعد الزنجى على الهبوط رويداً رويداً حتى استقرت على خشب المنضدة .
كانت المباراة قد بدأت صباح يوم من أيام الأحاد ، وانتهت صباح يوم
الاثنين . وطالب كثير من المتراهنين باعتبار أن المتباريين قد تعادلا ؛ لأنه
كان عليهم أن يتوجهوا إلى أعمالهم على الأرصفة حيث يحملون أكياس
السكر، أو إلى شركة « هافانا » للفحم الحجرى ، ولولا ذلك لود كل واحد
منهم أن يبقى ، وأن تستمر المباراة حتى النهاية .

بيد أن « سانتياجو » قد أنهاها على أية حال ، وقبل أن يشرع أى من
العمال فى التوجه إلى عمله .

وظل كل شخص عقب ذلك يناديه بالبطل على مدى من الوقت
طويل .

وأقيمت مباراة إعادة بينهما فى الربيع ، ولكن لم تُدفع أموال كثيرة فى
الرهان عليهما ، وفاز « سانتياجو » فى تلك المباراة فى سهولة ويسر ؛ إذ أنه
أفقد زنجى « شينفويجوس » ثقته بنفسه فى المباراة الأولى .

لم يلعب « سانتياجو » سوى القليل من المباريات ، وتوقف عن ذلك
تماماً؛ إذ أدرك أنه يستطيع أن يهزم أى منافس ، ولكن على حساب الإضرار
بيده اليمنى التى يعتمد عليها فى الصيد .

وكان قد حاول أن يمارس بعض مباريات تدريبية بيده اليسرى ، ولكنها
خائته ولم تحقق المنشود منها ، ولم يعد يثق بها .

وقال فى نفسه :

- إن الشمس ستدفئها جيداً الآن ، ولن تقلص مرة أخرى إلا إذا اشتد
البرد في أثناء الليل .

وقال متسائلاً :

- لست أدري ماذا تجيء به هذه الليلة .

ومرقت فوق رأس العجوز إحدى الطائرات في طريقها إلى « ميامي » ،
وشاهد ظلها يحدث ذعراً بين أسراب الأسماك الطائرة .

نظر العجوز نحو تلك الأسراب قائلاً :

- مع تلك الأسماك الطائرة الكثيرة لا بد أن يكون هناك دلفين .

وانثنى فوق الحبل ليرى إن كانت هناك فرصة سانحة للظفر بسمكته ،
ولكنه لم يفز بطائل ، وظلت على صلابتها ، وارتجافها الذي يسبق محاولتها
للهرب .

مضى المركب يمضى قدماً على مهل ، في حين كان العجوز يرقب
الطائرة حتى غابت عن ناظره .

قال محدثاً نفسه :

- لا بد أن ركوب الطائرة أمر مثير . وإنى لأتساءل كيف يكون منظر
البحر من هذا الارتفاع ؟ لا شك أن في استطاعة راكبيها أن يشاهدوا
السمك بوضوح إذا لم يطيروا على ارتفاع شاهق . . أتمنى أن أمتطى متن
طائرة تحلق ببطء على ارتفاع ألف ومائتي قدم ، وأشاهد الأسماك من حلق .
كنت أصعد إلى أعلى الصاري حين عملت مع سفن صيد السلاحف ،
ورأيت الكثير من ذلك الارتفاع . كان الدلفين من موقعي هذا يبدو أكثر

خضرة ، ويمكنك أن ترى خطوطه وبقعه الأرجوانية ، وفي استطاعتك أن تشاهد كل أسراب الدلافين وهي تسبح في البحر .

ثم قال :

- لماذا تتميز جميع الأسماك السريعة التي تقيم في التيارات القائمة بظهورها الأرجوانية ، وبخطوطها أو بقعها الأرجوانية عادة ؟ ومن الطبيعي أن الدلفين يبدو أخضر لأنه ذهبي اللون في الواقع ، ولكنه حينما يلم به الجوع الشديد وينشد الطعام تظهر خطوط أرجوانية على جانبيه مثل الموجودة على سمكة « المرلين » ، ترى أيكون ذلك بسبب الغضب ، أم أنها تظهر عندما يُسرَع في سيره ؟

وقبيل حلول الظلام مر المركب بجزيرة كبيرة من طحالب السرخس البحرية ، كانت تعلو وتنخفض وتتأرجح في المياه .

وعَلِقَ أحدُ الدلافين بخطاف حبله الصغير ، وكان العجوز قد رأى ذلك الدلفين من قبل حين قفز في الهواء ، وهو يرف ويلمع كقطعة من الذهب الخالص مع الأشعة الأخيرة التي كانت ترسلها الشمس قبيل غروبها . وراح يتلوى ويشب بعنف في الهواء ، وأخذ يقفز ويقفز في حركات أكروباتية خوفاً وهلعاً .

مضى العجوز إلى مؤخرة المركب ، وانحنى ممسكاً بالحبل الكبير بيده اليمنى ، وجذب الحبل المعلق به الدلفين بيده اليسرى وهو يضغط عليه في كل مرة بقدمه اليسرى العارية .

وحين أصبح الدلفين قريباً من مؤخرة المركب وهو يحاول الغوص مندفعاً

داخل الماء ، ويتخبط من جانب إلى جانب إلى آخر في يأس - انحنى العجوز ورفع الدلفين بِبِقَعِهِ الأرجوانية إلى المؤخرة .

كان الدلفين يعض الخطاف عضلات سريعة ، وفكَّاه يتحركان في تشنج وهو يقرع قاع المركب بجسمه الطويل المنبسط وذيله ورأسه ، وظل العجوز يضربه بهراوة على رأسه الذهبية اللامعة حتى ارتعش وسكنت حركته بعد أن زحف إليه الموت ، فخلصه العجوز من الخطاف ، وأعاد وضع طعم جديد بالحبل ، إذ أدخل الخطاف في سردينه ، وطوح بالحبل الصغير في الماء .

رجع العجوز ببطء إلى حنية المركب ، وغسل يده اليسرى ومسحها في «بنطلونه» ، ثم نقل الحبل الثقيل من يده اليمنى إلى اليسرى ، وغسل يمينه في البحر وهو يرقب الشمس وهي تغرب مخفية في الأفق البعيد وراء المحيط .

وتطلع إلى الحبل الكبير المائل في الماء ثم قال :

- إن السمكة لم تغير رأيها قط .

ولكنه لاحظ من حركة الماء ضد يده أنه يتحرك ببطء محسوس ، فقال :

- سأربط المجذافين معاً في مؤخرة المركب ، وهذا سيقفل من سرعة السمكة في الليل ، وهذا حسن مع الليل ومعى .

ثم همس لنفسه :

- من الأفضل أن أوْجَل شق بطن الدلفين وإخراج أحشائه لفترة قصيرة لأحتفظ بدمه داخل لحمه .

مضت برهة ثم أردف :

- سأربط المجذافين بعد قليل لأقيم عائقاً يبطيء من حركة السمكة ،
ويحسن أن أدع السمكة هادئة الآن ، ولا أسبب لها مزيداً من الإزعاج في أثناء
غروب الشمس ، وهو وقت عصيب بالنسبة لجميع أنواع الأسماك .

جعل العجوز يده تجف في الهواء ، ثم أمسك الحبل بها واسترخى قدر
استطاعته ، وترك العنان لنفسه لينجذب أماماً ، تجاه الألواح الخشبية ،
حتى يحكم شد المركب ويزيد مقاومتها أكثر مما فعل .

وقال في نفسه :

- إننى أتعلم كيف أقوم بذلك ، ولتتذكر أيضاً أن السمكة لم تأكل شيئاً
منذ أن أطبقت على الطعام ، وهى ضخمة وتحتاج إلى طعام وفير . لقد
أكلت كل سمكة التونة ، وغداً سأكل الدلفين .

أطلق العجوز على الدلفين اسم « دورادو » (وتعنى الذهبى باللغة
الإسبانية) .

ثم قال :

- قد آكل بعضاً منه عندما أقوم بتنظيفه . سيكون أصعب من التونة فى
المضغ ، ولكن ليس هناك شىء سهل .

وصاح متسائلاً :

- كيف حالك أيتها السمكة ؟

وأضاف :

- إننى بخير ، وقد تحسنت يدي اليسرى ، ولدى من الطعام ما يكفينى
ليلة وما يعقبها من نهار . اسحبى المركب ما شئت أيتها السمكة .

لم يكن في الحقيقة يشعر بأنه في حالة طيبة ؛ لأن الألم في ظهره - الذى يسببه الحبل المشدود إليه - أصبح مبرحاً ، وتطرقَّ إليه الملل حتى كاد يفقده الثقة بنفسه .

وأردف قائلاً :

- لقد مر بى ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، لقد جُرحت يدى جرحاً طفيفاً ، وزال التقلص من اليد الأخرى ، وساقاى بخير ، وفزت على السمكة في مجال التغذية .

سيبتشر الظلام الآن . . إذ سرعان ما يهبط الظلام بعد غروب الشمس خلال شهر سبتمبر .

استلقى العجوز على الأخشاب البالية عند حنية المركب ، واستراح بقدر استطاعته ، وطلعت النجوم الأولى في السماء .

لم يكن يعرف اسم « رجل الجوزاء اليسرى » ولكنه رآها فعرف أنها جميعاً ستذهب بعيداً وتختفى ، وأنه لن يلبث أن يجد أصدقاءه البعيدين .

وصاح قائلاً :

- إن السمكة صديقتى أيضاً ، لم أر أو أسمع قط بمثل تلك السمكة ، ولكن لا بدلى من أن أقتلها .

ثم شعر بالأسى من أجل السمكة الضخمة التى ليس لديها ما تقتات به ، غير أن عزمه على قتلها لم يفتقر قط برغم حزنه عليها .

ثم همس لنفسه :

- كم من الناس ستطعمهم تلك السمكة ، ولكن هل هم جديرون

بأكلها ؟ كلا . . طبعاً كلا . لا يوجد من هو أهل لتناول لحمها لما أبدته من سلوك رائع ، ووقار ونُبُل وسمو .

واستأنف حديثه لنفسه :

- يجب أن أفكر الآن في عملية إعاقة سحب المركب . إن لها مخاطرها ومنافعها . سأرعى العنان للحبل ليمتد بعيداً ، وقد أفقد السمكة إذا بذلت جهداً كبيراً ، وكذلك يفقد المركب كل خفته بسبب وضع المجذافين مربوطين بالمؤخرة . إن خفة المركب تطيل معاناتي أنا والسمكة ، ولكنها ضمان لسلامتي ؛ إذ أن سرعة السمكة كبيرة ولم تستغلها قط حتى الآن . أما عن الدلفين فيجب عليّ أن أشق بطنه وأخرج أحشائه حتى لا يفسد ، وأتناول بعضاً منه لأكون قوياً .

وأكمل حديثه لنفسه قائلاً :

- الآن سأستريح ساعة أخرى ، وأرى إن كانت لا تزال صامدة ومستمرة في سيرها بانتظام قبل أن أمضى إلى مؤخرة المركب لأنجز المهمة التي قر عزمي عليها ، وفي نفس الوقت يمكنني أن أرى كيف تتصرف السمكة ، وعملاً إذا كانت هناك أية تغييرات تبدو منها ، إن طريقة المجذافين حيلة طيبة ، ولكنني بلغت الوقت الذي أعمل فيه على سلامتي . إنها ما زالت صامدة ، وقد رأيت الخطاف في ركن من فمها ، وأنها أحكمت إغلاقه . إن آلام الخطاف لا شيء بالنسبة لآلام الجرع ، ومواجهتها لشيء لا تفهمه .

ثم همس لنفسه :

- استرح الآن أيها العجوز ، ودع السمكة تعمل حتى يحين ما يجب عليك أن تؤديه في الخطوة التالية .

لقد استراح فترة اعتقد العجوز أنها ساعتان . ولم يظهر القمر الآن ؛ لأنه لا يلوح في الأفق إلا متأخراً ، ولم تكن لديه وسيلة لتقدير الوقت ، ولم تكن راحته حقيقية بل هى مسألة نسبية ، وكان لا يزال يتحمل جذب السمكة للحبيل المشدود إلى كتفيه .

اتكأ بيده اليسرى على الحافة العليا من جانب حنية المركب ، وركز اهتمامه على مقاومة السمكة أكثر من اهتمامه بالمركب نفسه .

ثم فكر قائلاً :

- قد يكون الأمر سهلاً لو استطعت أن أجعل الحبيل ثابتاً ، ولكن السمكة يمكنها أن تقطعه وتفلت منه بهزة صغيرة منها . لا بد أن أجعل جسدى وسادة للحبيل الذى يجذب المركب ، وأن أكون مستعداً فى كل الأوقات لإرخاء العنان له بكلتا يديّ .

وصاح مُذكراً نفسه :

- ولكنك لم تنم حتى الآن ، أيها العجوز . إنك لم تنم طوال يوم وليلة ، والآن يوم آخر ، فيجب عليك أن تدبر طريقة لتنام قليلاً إذا استمرت السمكة هادئة وتسير بثبات وانتظام ، إنك إذا لم تنم فقد يفقد عقلك حدته ومضاهه .

ثم قال :

- إنى أتمتع بذهن صافٍ تمام الصفاء . إننى واضح كالنجوم ، ومع ذلك لا بد أن أنام ، إن النجوم تنام ، وكذلك القمر والشمس ينامان ، وحتى المحيط ينام أحياناً فى أيام معينة ، حينها لا يكون هناك تيار ، وتهدأ صفحته فتبدو مسطحة منبسطة .

مضت برهة ثم أردف بغتة :

- تذكر أن تنام . ولتجعل نفسك تقدم على ذلك ، وابتكر طريقة بسيطة ومؤكدة بخصوص الحبال . والآن عُد فجهز الدلفين ، ومن الخطر أن تعد المجاذيف كعائق إذا كان لا بد لك أن تنام .

واستطرد قائلاً :

- إننى أستطيع أن أبقى بلا نوم ، ولكن ذلك خطير أيضاً .

بدأ يزحف إلى الخلف على يديه وركبتيه وهو يتجنب هز السمكة هزاً عنيفاً .

ثم همس لنفسه :

- قد تكون هى نفسها نصف نائمة ، ولكننى لا أريد لها أن تستريح ، يجب أن تستمر فى سحب المركب حتى تموت .

واستدار عند مؤخرة المركب جاعلاً يده اليسرى تقاوم توتر الحبل المحكم الشد حول كتفيه . واستل سكينه من غمدها بيده اليمنى .

كانت النجوم متألقة ، فرأى الدلفين بوضوح ، دفع نصل سكينه فى رأسه ، وجذبه من أسفل مؤخرة المركب ، ووضع إحدى قدميه على الدلفين ، وبحركة سريعة شق بطنه حتى طرف فكه الأسفل . ثم ألقى بالسكين جانباً . وأخرج أحشاءه بيده اليمنى ، ونظف جوفه ، وانتزع خياشيمه ، وشعر بمعدته ثقيلة تكاد تنزلق من يده ، وفتحها فوجد بداخلها سمكتين من نوع الأسماك الطائرة ، وكانتا طازجتين محتفظتين بصلابتهما ، فوضع إحداهما بجانب الأخرى ، وطوح بأحشاء الدلفين وخياشيمه فى الماء ، فغاصت تاركة وراءها وميضاً فوسفورياً .

كان الدلفين بارداً ، وأصبح لونه الآن أبيض حرشفياً في ضوء النجوم ، وسلخه العجوز من أحد جانبيه ، وكان يضغط بقدمه اليمنى فوق رأس الدلفين ، ثم قلبه وسلخ الجانب الآخر ، وفصل الجلد في كلا الجانبين من الرأس حتى الذيل ، وقذف به إلى البحر ، ونظر إلى الماء ليرى إن كان يدور كالدوامة ، ولكن لم يكن هناك سوى الضوء الذي صاحَب الجلد وهو يهبط ببطء في الماء ، ثم استدار ووضع السمكتين الطائرتين داخل شريحتي الدلفين ، وأعاد سكينه إلى غمدها ، وزحف ببطء إلى حنية المركب .

تقوس ظهر العجوز من ثقل الحبل المشدود حوله ، وحمل شريحتي الدلفين في يده اليمنى .

وضع الشريحتين ويداخلهما السمكتان الطائرتان بجانبه على الخشب عند حنية المركب ، ثم نقل موضع الحبل المشدود إلى كتفيه إلى مكان جديد ، وأمسك به مرة أخرى بيده اليسرى التي أسندها فوق الحافة العليا من جانب المركب .

انحنى بعد ذلك فوق هذا الجانب ، وغسل السمكتين الطائرتين وهو يلاحظ سرعة المياه وهي تصطدم بيده التي اكتسبت وميضاً فوسفورياً بعد سلخه لجلد الدلفين ، كان جريان الماء قد قلت قوة اندفاعه ، وحين حك يده في ألواح المركب الخشبية طفت حبيبات متفسفرة وانجرفت ببطء خلف مؤخرة المركب .

ولم يلبث أن قال في نفسه :

- إن السمكة قد أدركها التعب أو لعلها تستريح .

وأردف :

- لأشرع الآن في أكل لحم هذا الدلفين ثم آخذ قسطاً من الراحة ، وأنام قليلاً .

أكل العجوز نصف شريحة من الدلفين في ضوء النجوم ، واستمر البرد شديداً بالليل ، ثم تناول سمكة طائفة ، وأخرج أحشاءها ، وقطع رأسها ، والتهمها عقب ذلك .

وهمس لنفسه :

- ما أشهى تناول لحم الدلفين مطهياً ، وما أسوأ أكله نيئاً . . لن أذهب في مركب أو قارب مرة أخرى بدون ملح أو ليمون حمضى .

ثم قال :

- لو كنت شخصاً شديد الذكاء لألقيت رشاشاً من ماء البحر فوق حنية المركب طوال النهار ، حتى إذا جف تحول إلى ملح ، بيد أن الدلفين لم يعلق بالخطاف إلا بعد أن أوشكت الشمس على الغروب ، وعلى أية حال فقد كان يعوزنى الاستعداد ، ولكننى مضغته جيداً بدون أن أصاب بالعثيان .

انعقدت السحب في السماء صوب الشرق ، وراحت النجوم التى يعرفها تختفى واحدة وراء الأخرى .

وبدا له كأنه يتحرك في وادٍ ضيق من السحب منحدر الجنبات ، يجرى في أدناه جدول . وسكنت الرياح ، فقال في نفسه :

- سوف يسوء الطقس في مدى ثلاثة أو أربعة أيام ، ولكن ليس اليوم ولا الغد . . تهباً الآن لتظفر بشيء من النوم أيها الرجل العجوز في الوقت الذى أخذت فيه السمكة إلى الهدوء ، والتزمت السير بانتظام .

أمسك الحبل بيده اليمنى بإحكام ، ودفع بفخذه فوقها ، وانحنى بكل جسمه ملتصقاً بحنية المركب الخشبية .

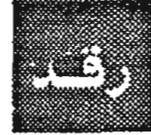
حرك الحبل المشدود إلى كتفيه ، مسافة قليلة إلى أسفل ، وأسند يده اليسرى فوقه ضاغطاً بها بقوة عليه ، وقال في نفسه :

- إن يدي اليمنى تستطيع أن تظل ممسكة بالحبل طالما كان مشدوداً ، فإذا استرخى في أثناء نومي فإن يدي اليسرى ستوقظني في هذه الحالة . إن يميني تقبض بقوة وصلابة على الحبل ، ولكن السمكة قد تعودت على المعاملة القاسية ، وحتى إذا نمت عشرين دقيقة أو نصف ساعة فما أطيب ذلك !

القسم الرابع



العجوز مكوماً نفسه على الحبل بكل جسده ، ملقياً كل ثقله
على يده اليمنى ، وراح في النوم .



لم يحلم بالأسود ، بل رأى بدلاً منها سرباً من الدلافين امتد إلى ثمانية أو
عشرة أميال ، وأخذت الدلافين تقفز عالياً في الهواء ، ويعود كل منها إلى
الحفرة التي شقها في الماء عندما وثب .

ثم رأى فيما يرى النائم بأنه في القرية راقداً في فراشه ، وقد هبت الريح
الشمالية فأحس بالبرد القارس ، وشعر بِخَدَرٍ في ذراعه اليمنى التي اتخذ
منها وسادة لرأسه .

ولم يلبث أن شرع يحلم بالشاطئ الأصفر الطويل ، ورأى أول الأسود
مُقبلاً نحو الشاطئ في بداية الليل ، ثم جاءت السباع الأخرى ، وقد أسند
ذقنه إلى أخشاب حنية المركب الذي كان يقف حيث ألقى مراسيه في المساء
بعيداً عن اليابسة في سهولة ويسر ، وجعل ينتظر ليرى إن كان هناك مزيد
من الأسود ، وقد غمرته السعادة .

ظل القمر طويلاً وسط السماء ، ولكن الرجل العجوز كان مستغرقاً في
النوم ، في حين كانت السمكة تجر المركب بثبات ، ومضى المركب فكأنه
يتحرك داخل نفق من السحب .

استيقظ العجوز عندما اهتزت قبضة يده اليمنى هزة عنيفة ، وارتفعت حتى لطمت وجهه ، وكان الحبل يُولمها ألماً شديداً .

لم يكن يشعر بيده اليسرى شيئاً ، ولكنه جذب الحبل بيده اليمنى بكل ما استطاع من قوة ، فأفلت الحبل من قبضتها ، وأخيراً عثرت يده اليسرى على الحبل .

انحنى العجوز إلى الخلف وهو يجذب الحبل الذي ألهب الآن ظهره ويده اليسرى ، وكانت يسراه قد تحملت كل العبء الناجم عن الحبل المتوتر المشدود وهو يحز فيها حزاً مؤلماً . ونظر إلى لفات الحبال فوجدها في حالة جيدة .

وفي تلك اللحظة قفزت السمكة قفزة هائلة فانطلقت خارجة من المحيط ، ثم سقطت بعنف ، وعاودت القفز المرة تلو المرة ، ومضى المركب في طريقه بسرعة برغم أن الحبل كان في سباق مضاد ، والعجوز يشدد من قوة جذب الحبل إلى أقصى مداه مراراً وتكراراً ، ولم يلبث أن انكفأ على وجهه فوق الشريحة الباقية من الدلفين عند حنية المركب ، ولم يستطع حراكاً .

همس العجوز لنفسه :

- هذا ما كنا ننتظره ، إذن فلنواجهه الآن ، وسأجعل السمكة تدفع الثمن . . فلتدفع الثمن .

لم ير العجوز وثبات السمكة ، ولكنه سمع الصوت الذي تُحدثه وهي تشق طريقها منطلقة من المحيط ، وشعر بما يبعثه سقوطها في الماء من رشاش ثقيل ، وكانت سرعة الحبل تحز في يديه بقسوة ، ولكنه كان يعرف تمام المعرفة أن ذلك أمر قد يحدث ، وحاول أن يجعل الحبل يحز في الأجزاء

المتصلبة من يده ، وألاً يدعه يزحف إلى راحة يده أو يؤذى أصابعه .
وشرع يقول متحسراً :

- لو كان الصبى هنا كَبَلُّ لفات الحبال . . أجل لو كان الصبى هنا !
وجعل الحبل يمضى ويمضى مبتعداً عنه ، ولكن سرعته تتناقص ،
واستمر يرخى العنان للسمكة بوصة بوصة ، ورفع رأسه الآن عن حنية
المركب خارج شريحة الدلفين التى عصرها خده وسحقها .
نهض العجوز راکعاً على ركبتيه ثم استوى ببطء واقفاً على قدميه ، وأخذ
يتخلى عن الحبل رويداً رويداً فى ببطء ، وعاد إلى حيث يستطيع أن يستشعر
بقدمه لفات الحبال التى لم يعد يراها فى الظلام .

كان هناك مقدار وافر من الحبل ما زال موجوداً ، وعلى السمكة الآن أن
تجذب كل ذلك الحبل الطويل خلال الماء .
وحدث نفسه قائلاً :

- نعم ، لقد قفزت الآن أكثر من اثنتى عشرة مرة ، وملاّت مئائتها
الهوائيتين عند ظهرها بالهواء ، ولن تستطيع أن تهبط إلى الأعماق لتموت
هناك ، فلا أستطيع أن أرفعها ، إنها سرعان ما ستبدأ فى الدوران ، وينبغى
لى إذن أن أتعامل معها ، غير أن ما يدهشنى هو ما الذى أثارها فجأة ؟
أكان الجوع هو الذى أوصلها إلى حافة اليأس ، أم أن شيئاً آخر قد أثار
رعبها فى الليل ؟ لعلها شعرت فجأة بالخوف ، ولكنها كانت سمكة هادئة
قوية ، وبدت جسورة شجاعة لا تعرف الخوف ، وكلها ثقة بنفسها ، فياله
من أمر عجيب !

خاطب الرجل نفسه قائلاً :

- من الأفضل لك أن تكون مقداماً لا يتطرق الخوف إلى قلبك ، وأن تثق بنفسك ، وها أنت ذا تمسك بها مرة أخرى ، ولكنك لا يمكنك أن تأتي بمزيد من الحبال ، غير أن السمكة لن تلبث أن تدور في حركة دائرية .

أمسك الرجل العجوز بالحبل المشدود إلى كتفيه بيده اليسرى ، وانحنى مطأطئاً رأسه ، واغترف الماء بيده اليمنى ليزيل آثار لحم الدلفين المهروس من وجهه ، كان يخشى أن تثير غشيانه ويتقيأ فيفقد قوته . وعندما انتهى من تنظيف وجهه أدلى يده اليمنى من فوق جانب المركب ، وغسلها في الماء ، وتركها في المياه المالحة في حين كان يرقب الخليط الأول من الفجر قبيل شروق الشمس .

ولم يلبث أن قال لنفسه :

- إن السمكة تتجه غالباً إلى الشرق ، وهذا يعنى أن التعب قد لحق بها فسبحت مع التيار ، وستحوم بسرعة ، وعندئذ تبدأ مهمتنا الحقيقية .

وحين أدرك أن يده اليمنى قد مكثت في الماء مدة كافية ، أخرجها وتمعن فيها ، ثم قال :

- لا بأس ، إن احتمال الألام من شيم الرجال .

وأمسك بالحبل في عناية واهتمام محاذراً أن يرخي مزيداً من العنان للحبال الاحتياطية ، ورفع نفسه حتى يتمكن من أن يمد يده اليسرى في البحر من فوق الجانب الآخر للمركب .

ووجه حديثه ليده اليسرى قائلاً :

- إنك لم تتألمى من أجل شىء لا يستحق ذلك ، غير أنه قد قابلتنى لحظة لم أجدك فيها .

ثم راح يفكر قائلاً :

- لماذا لم أولد بيدين لهما قوة واحدة ، ربما كانت غلظتى أننى لم أدرب تلك اليد جيداً . ولكن يعلم الله أنه قد أتاحت لها فرص كافية كى تتعلم ، وكانت لا بأس بها فى الليل ، ولو أن عضلاتها قد تقلصت ذات مرة ، وليت الحبل يقطعها إذا تقلصت مرة أخرى .

وحين مر بخاطره أن ذهنه لم يعد صافياً ، فكر فى أنه ينبغى له أن يمضغ مزيداً من لحم الدلفين .

غير أنه قال لنفسه :

- إننى لا أستطيع . من الخير أن تظل طائشاً مصاباً بالدوار من أن تفقد قوتك نتيجة إصابتك بالغثيان ، وإنى أعرف منذ أن كان وجهى ملتصقاً بشريحة الدلفين ، أننى لا أستطيع الاحتفاظ بها إذا أكلتها ، غير أننى سأحتفظ بها تحسباً للطوارئ إلى أن يتطرق إليها الفساد ، ولكن الآن قد سبق السيف العذل لمحاولة أن أنشد القوة عن طريق التغذية .

وهمس لنفسه :

- أنت غبى ! كل السمكة الطائرة الثانية .

وكانت هناك نظيفة مُعدّة للأكل .

التقطها العجوز بيده اليسرى ، وأكلها ماضعاً عظامها بعناية ، وتناولها بأجمعها حتى ذيلها .

وقال :

- إنها مغذية أكثر من أية سمكة أخرى ، وفيها على الأقل نوع التقوية
الذى أحتاج إليه .

ثم أردف :

- هأنذا قد فعلتُ ما فى وسعى ، فلتبدأ السمكة تدور ، ومرحباً بالعراك
والقتال .

كانت الشمس تشرق للمرة الثالثة منذ نزوله إلى البحر ، وهنا بدأت
السمكة تحوم .

لم يستطع أن يرى انحراف الحبل ليدرك أن السمكة كانت تدور ، حدث
ذلك مبكراً جداً ، وبأسرع وقت ليلحظ ذلك ، وإنما أحس تراخياً طفيفاً فى
ضغط الحبل ، فبدأ يجذبه بيده اليمنى فى رفق ، ودأوم على ذلك .

توتر الحبل فى يده كالعادة ، وحين وصل توتره إلى أقصى مداه بدأ فى
جذب الحبل إلى أعلى ، وهنا انزلق العجوز بكتفيه ورأسه من تحت الحبل ،
وشرع يجذبه بثبات ورفق . واستخدم كلتا يديه وراح يؤرجحهما ، وحاول
قدر استطاعته أن يلقي بعبء الجذب على جسده وساقيه ، وقامت ساقاه
العجوزان وكتفاه بدور أساسى فى حركة الجذب المتأرجحة .

قال العجوز :

- يا لها من دائرة كبيرة ! ولكنها تحوم وتدور .

ثم توقف عن جذب الحبل إلى أعلى ، إلى أن رأى قطرات الماء تقفز منه

في ضوء الشمس ، فركع العجوز ، وأرخصي له العنان متدمراً لينساب في الماء القاتم .

وهمس قائلاً :

- إنها الآن تمضي إلى أقصى محيط الدائرة .

ثم قال :

- ينبغي أن أمسك الحبل بكل قواي ، حيث إن توتره يضيق من محيط دائرته في كل مرة ، وربما أراها في مدى ساعة ، والآن يجب أن أقتعها ، ثم لا بد أن أقتلها .

ولكن السمكة واصلت الدوران ببطء ، وتصيب العرق من العجوز بغزارة ، ونال منه التعب حتى النخاع طوال ساعتين أخريين . غير أن الدوائر قد زادت ضيقاً الآن ، وعرف العجوز من الطريقة التي مال بها الحبل أن السمكة قد ارتفعت بثبات وانتظام في أثناء سباحتها في الماء .

وظل العجوز طوال ساعة يرى بقعاً سوداء أمام عينيه اللتين تملحتا من العرق ، وتملح منه أيضاً الجرح القطعي الذي سبق أن أصيب به أعلى عينه ، وكذلك مَلَحَ العرقُ جبهته .

لم يكن يخشى تلك البقع السوداء ، كان ذلك أمراً طبيعياً بسبب توتر أعصابه وهو يجذب الحبل ، غير أنه شعر بالإغماء ، وأصيب بدوار مرتين ، وقد أقلقه ذلك وأزعجه . وقال في نفسه :

- محال أن أضعف ويصيني الوهن وأخفق وأموت أمام سمكة كهذه ، وهي الآن ساعية نحوي سعياً جميلاً ، فليساعدني الله على أن أحتمل .

وشعر في تلك اللحظة بحركة مفاجئة ، ووثبة قوية في الحبل الذي كان
ممسكاً به بكلتا يديه ، وكان الحبل حاداً قاسياً ثقيلًا .

وقال :

- إن السمكة تضرب السلك ، الذي يقود السمك إلى الشَّرك ،
بخطمها الطويل الرععى الشكل ، كان ذلك لا بد أن يحدث ، ولو أن هذا
قد يحملها على أن تثب إلى سطح البحر ، وإن كنت أوتر أن تبقى دائرة
الآن . إن القفز ضروري لها لتحصل على الهواء ، غير أن كل وثبة تقوم بها
تعمل على توسيع فتحة الجرح الذي أحدثه الخطاف ، ويمكنها بذلك أن
تلقى بالخطاف وتتخلص منه .

وصاح قائلاً :

- لا تقفزى أيتها السمكة ، لا تقفزى .

ضربت السمكة السلك عدة مرات ، وفي كل مرة تهب فيها السمكة
رأسها كان العجوز يرخي لها الحبل قليلاً .

وقال لنفسه :

- يجب أن أخفف من ألمها ، أما آلامى فلا تهم ، ففى استطاعتى أن
أسيطر عليها ، أما آلام السمكة فقد تدفعها إلى الجنون .

وبعد برهة توقفت السمكة عن ضرب السلك وشرعت في الدوران ببطء
مرة أخرى .

أخذ العجوز يجذب الحبل الآن في ثبات ، ولكنه شعر بأنه على وشك
الإغماء مرة أخرى ، اغترف بعض ماء البحر بيده اليسرى وسكبه فوق رأسه ،
وعاودَ فِعْل ذلك بكمية أكثر من الماء ، ومسح قفاه .

وقال :

- لا تقلصات بي الآن ، وسرعان ما ستصعد السمكة ، وفي استطاعتي أن أصمد ، يجب أن تصمد ولا تستمر في الحديث عن ذلك .

ركع الرجل في حنية المركب ، وفي لحظة جعل الحبل ينزلق فوق ظهره مرة أخرى .

وقال في عزم :

- سأستريح الآن والسمكة مُستمرة في سيرها الدائري ، ثم أنهض واقفاً ، وأتعامل معها عندما تصعد .

شعر الرجل بإغراء كبير ليخلد إلى الراحة في حنية المركب ، تاركاً السمكة تتم دورة واحدة بدون أن يسترد شيئاً من الحبل .

غير أنه عندما استدل من توتر الحبل على أن السمكة قد استدارت لتصعد صوب المركب ، نهض العجوز مستوياً على قدميه ، وبدأ يهتز ويتأرجح وهو يجذب الحبل حتى استعاد كل ما سبق أن أرخاه منه .

وحدث نفسه قائلاً :

- إننى في أشد حالات التعب والإعياء الذى لم أعانٍ مثله من قبل ! والآن ها هى ذى الرياح التجارية تهب ، ولكن ما أبداع ذلك ! إنها ستجرف السمكة معها ، إننى فى حاجة إلى ذلك على نحو مُلحٍّ إلى أبعد حد .

وقال :

- سأستريح خلال الدورة التالية للسمكة عندما تمضى فى حركتها

المستديرة ، إننى أشعر الآن بتحسّن ، وسأظفر بها بعد أن تقوم بدورتين أو ثلاث دورات أخرى .

كانت قبعتها المصنوعة من القش منحدرّة عند مؤخرة رأسه ، وقبع الرجل في حنية المركب ، ومضى يجذب الحبل حين أحسّ بالسّمكة تدور .

وقال موجهاً حديثه إلى السّمكة :

- إنك تعملين الآن أيتها السّمكة . وسأستحوذ عليكِ عندما تستديرين .

ارتفع ماء البحر إلى حد كبير ، وكان النسيم يهب وسط طقس معتدل ، وكان ذلك يعوزه ليعود به إلى البر .

ثم قال :

- سأدير دفة المركب تجاه الجنوب الغربى . إن الإنسان لا يُفقد أبداً في البحر ، والجزيرة طويلة .

وفي الدورة الثالثة كانت السّمكة أول ما وقع بصره عليها .

ورآها في أول الأمر كظل قاتم استغرق وقتاً طويلاً ليمر من تحت المركب ، حتى إنه لم يكن يصدق أن تبلغ السّمكة مثل ذلك الطول .

وقال :

- كلا . . لا يمكن أن تكون بتلك الضخامة .

ولكنها كانت كذلك ، وعندما انتهت من دورتها ، طفت على سطح البحر على مسافة ثلاثين ياردة فقط من المركب ، وشاهد الرجل ذيلها يبرز

من الماء ، وكان أكثر ارتفاعاً من فصل منجل كبير بلون أرجوانى شاحب فوق المياه الزرقاء الداكنة .

ثم انحدر الذيل ، وحين سبحت السمكة تحت سطح الماء مباشرة تمكن العجوز من رؤية جسمها الضخم ، والخطوط الأرجوانية التى تطوقه .

كانت زعنفتها الظهرية منكسة ، فى حين كانت زعنفتها الصدريتان الضخمتان منبسطتين على مدى واسع من الاتساع .

واستطاع الرجل العجوز فى هذه الدورة أن يرى عين السمكة ، والسمكتين المصاصتين الرماديتين اللتين كانتا تسبحان حول السمكة الضخمة ، وتلتصقان بها تارة ، وتتركانها تارة أخرى مندفعتين بعيداً عنها كالسهم . وفى أحيان أخرى كانتا تسبحان فى ظلها بدون أن تشعرنا بقلق أو ارتباك .

كان طول كل من السمكتين المصاصتين يزيد على ثلاث أقدام . وحين كانتا تسبحان بسرعة فإنهما تندفعان فى هذه الحالة بعنف مثل ثعابين الماء .

وها هو ذا الرجل العجوز ينضح منه العرق بسبب الشمس وغيرها ، فمع كل دورة كانت تقوم بها السمكة فى هدوء ورباطة جأش كان الرجل يسترد جزءاً من الحبل ، وكان واثقاً من أنه بعد دورتين أُخْرَيْنِ للسمكة ، سيجد فرصة ليطعننها بالرمح .

وقال لنفسه :

- ولكن يجب أن أجعلها تقترب وتقترب وتقترب ، وينبغى أن أحاول طعننها فى رأسها ، بل يجب أن أصيبها فى القلب .

وأردف لنفسه :

- كن هادئاً وقويّاً أيها الرجل العجوز .

وفي الدورة التالية برز ظهر السمكة خارج الماء ، ولكنها كانت بعيدة قليلاً عن المركب .

وفي الدورة التي تلت بعد ذلك كانت السمكة ما زالت بعيدة ، غير أن ارتفاعها فوق سطح الماء قد زاد .

وأصبح الرجل العجوز على يقين من أنه إذا استرد مزيداً من الحبل استطاع أن يجعلها بجانب المركب .

وكان قد أعد رجه منذ وقت طويل ، وكانت لفة الحبل الخفيفة المثبتة بالرمح موضوعة في سلة مستديرة ، في حين أن طرفها كان معقوداً بإحكام بمرابط الحبال . . ذلك العمود المعدني عند الحنية الذي تشد إليه الحبال .

قَدِمَت السمكة الآن في دورتها هذه نحو المركب هادئة جميلة المنظر ، وكان ذيلها الضخم هو الذي يتحرك .

جذب الرجل العجوز الحبل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى يزداد قُربها منه .

استدارت السمكة قليلاً حتى أصبحت بجانبه لحظة ثم اعتدلت ، وبدأت دورة أخرى .

وقال الرجل العجوز :

- لقد حركتها . . لقد حركتها إذن .

وشعر بالإغماء يعاوده الآن ، ولكنه جذب السمكة الضخمة بكل ما تبقى من قواه .

وعاد يقول :

- لقد حركتها ، وربما استطعت أن أظفر بها هذه المرة .

ثم قال :

- أجذبها يا يدَيَّ ، واشتدًا يا ساقَيَّ . وَاثْبُتْ يا رَأْسِي من أجلى . . اثبت من أجلى ولا تنهر أبدأ . في هذه المرة سأظفر بها .

وحينها بدأ يستجمع كل قواه قبل أن تجيء السمكة في محاذة المركب ، جذب الحبل بكل قوته ، ولكن السمكة استدارت واعتدلت وسبحت مبتعدة .

صاح العجوز :

- أيتها السمكة ، أيتها السمكة ، إنك ستموتين على أية حال ، فهل تقتلينني معك أيضاً ؟

ثم حدث نفسه :

- لا شيء يمكن أن يتم هكذا .

وكان ريقه قد جف حتى أصبح لا يقوى على الكلام ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يصل إلى زجاجة الماء .

وقال العجوز :

- يجب أن اجتذب السمكة نحوي هذه المرة ، إنني لم أعد احتمل مزيداً من دوراتها .

ثم قال :

- أجل . . إنك . . إنك ما زلت قادرة على الصمود !

وكاد يظفر بالسمة في الدورة التالية ، ولكنها عادت واعتدلت مرة أخرى ، وراحت تسبح ببطء مبتعدة عنه ، فحدثها قائلاً :

- إنك تقتليني أيتها السمة ، ولكن ذلك من حقدك ، إنني لم أر قط سمة أضخم ولا أجل ولا أهدأ ولا أنبل منك أيتها الأخت ، تقدّمي واقتليني ، فلست أبالى بمن يقتل من .

وهمس لنفسه :

- إن ذهنك مشوش الآن ، ويجب أن تحتفظ بعقلك صافياً . احتفظ بحِدَّتِهِ ومضائه ، وتعلّم كيف تحتمل الآلام كرجل ، بل حتى كالأسماك .

وقال بصوت لا يكاد يسمعه :

- اصفُ يا عقلي . . اصفُ . .

وتكرر نفس دوران السمة مرتين أُخْرَيْنِ .

فأعمل العجوز فكره قائلاً :

- لست أعلم لم تفعل هذا ؟ . يبدو أنها تريد أن تذهب بعيداً . .

إنني لا أعلم ، غير أنني سأحاول مرة أخرى .

كرر الرجل المحاولة مرة أخرى ، وأدار السمة ، ولكنها اعتدلت وسبحت على مهل مبتعدة كما تفعل في كل مرة ، وكان ذيلها الضخم يتماوج في الهواء .

وأصر العجوز على إعادة المحاولة مرة أخرى ، برغم أن يديه كانتا الآن قد كَلَّتَا ، ولم يعد يستطيع أن يرى إلا المأمأ .

أعاد المحاولة وحدث نفس الشيء .

وأحس واعتقد أنه ينهار قبل أن يبدأ ، ولكنه قال :

- سأحاول مرة أخرى .

تحمل كل آلامه ، واستجمع كل ما بقى له من قوة ، وكل كبريائه التي اعتدَّ بها طويلاً ، ووضعها في مواجهة السمكة التي تغالب آلامها .

اقتربت السمكة ، وسبحت برفق إلى جانب المركب ، وكادت مقدمة رأسها أن تلمس ألواح المركب الخشبية ، وبدأت تتجاوزها طويلاً ، غامضة ، عريضة ، فضية ، مخططة بخطوط أرجوانية ، وبدت في الماء كما لو كانت لا آخر لها .

ألقي العجوز بالحبل ، وضغط عليه بقدمه ، ورفع الرمح عالياً قدر استطاعته ، وطعن بكل قواه ، وبكل قوته التي استجمعها منذ هنيهة ، فنقذ الرمح في جنب السمكة خلف الزعنفة الصدرية الكبيرة التي ارتفعت عالياً في الهواء إلى مستوى ارتفاع صدر الرجل . وأحس بحديد الرمح يخترق جسدها ، فانحنى فوقه دافعاً إياه بكل ثقله ليتوغل داخل لحمها .

ولكن السمكة التي تحمل الموت داخلها ، ظلت حية ، وارتفعت خارج الماء كما لو كانت تستعرض طولها وعرضها الكبيرين ، وكل ما تملكه من قوة وجمال .

وبدت كأنها معلقة في الهواء فوق الرجل العجوز في المركب ، ثم سقطت

في الماء محدثة ضجة عالية ، وانبعث رذاذ ماء البحر فوق العجوز والمركب كله .

شعر الرجل العجوز بالدوار ، وأحس بالسأم ، ولم يعد يرى جيداً ، لكنه أطلق العنان لحبل الرمح ، وجعله ينسحب ببطء من بين يديه المتسلختين . وحين استطاع أن يرى ، شاهد السمكة مستلقية على ظهرها ، وبطنها الفضي إلى أعلى .

كانت قصبه الرمح بارزة بزاوية من كتف السمكة ، واستحال لون ماء البحر إلى لون الدم الأحمر الذي سال من قلبها . كان الدم في أول الأمر قائماً كلون قطيع من الأسماك في الماء الأزرق الذي تجاوز عمقه الميل ، ثم انتشر الدم كأنه سحابة .

كانت السمكة الفضية اللون ساكنة طافية مع الأمواج .

ألقي الرجل العجوز نظرة خاطفة بالبقية الباقية من الإبصار في عينيه ، وأمسك بلفتين من حبل الرمح المثبت في مربوط الحبال عند حنية المركب ، واعتمد رأسه بين يديه وقال :
- احتفظ بعقلك كاملاً .

ثم قال وهو قبالة ألواح الحنية الخشبية المقوسة :

- إننى رجل هدته السنون والأعوام . ولكننى قتلت هذه السمكة . . إنها أختى . . وينبغى أن أقوم الآن بعمل مُضني .

يجب أن أقوم الآن بإعداد الأنشوطات والحبل لربطها . وحتى لو كنا اثنين ورفعناها لنضعها داخل هذا المركب لما وسعها .

ينبغي أن أعد كل شيء ، وأسحبها نحو المركب ، وأربطها جيداً ،
وأثبت الصارى بسناد ، وأبحر إلى موطنى .

بدأ يجذب السمكة لتتقرب بحذاء المركب ، حتى يمكنه أن يمرر حبلاً
من خلال خياشيمها ، ويخرجه من فمها ، ويشد رأسها على طول حنية
المركب .

وقال :

- أريد أن أراها ، وأمسها ، وأتحسسها .. إنها ثروتى .. ولكن ليس
ذلك هو السبب الذى أريد من أجله أن أفعل ذلك .

وهمس لنفسه :

- أظن أننى أحسست بقلبها عندما دفعت فيه بقصبة الرمح فى المرة
الثانية ، فلأجذبها الآن إلى هنا لأربطها ، ولأضع الأنشطةطة حول ذيلها
وأعقدها فوقه ، وأخرى حول وسطها لأربطها فى المركب .

ثم قال محدثاً نفسه :

- هيا إلى العمل أيها العجوز .

وشرب قليلاً من الماء ، وأكمل حديثه قائلاً :

- هناك الآن كثير من العمل المضى برغم انتهاء النزال والقتال .

تطلع إلى أعلى نحو السماء ثم إلى سمكته ، ونظر إلى الشمس بحذر

وقال :

- إن الوقت لم يتجاوز الظهيرة ، والرياح التجارية تهب ، وأردف :

- إن الحبال كلها لا تعنى شيئاً الآن ، وسوف نصلها معاً بجذُل أطرافها
أنا والصبي عندما أعود إلى البيت .

ونادى السمكة قائلاً :

- تعالِ أيتها السمكة .

ولكن السمكة لم تأتِ ، بل كانت ترقد هناك ، وتتخبط في البحار ،
وجذب الرجل العجوز المركب نحوها .

وحتى عندما كان مع السمكة - وهو يرى رأسها مشدوداً على طول حنية
المركب - لم يصدق أنها بذلك الحجم الضخم .

فك حبل الرمح من مربوط الحبال وأنفذه من خياشيم السمكة ، وأخرجه
من بين فكها ولفه حول مقدمة رأسها الطويلة كالسيف ، ثم أنفذ الحبل
خلال الخيشوم الآخر ، وعقد لفة أخرى حول مقدمة رأسها ، وعقد الحبل
المزدوج وثبته بإحكام في مربوط الحبال عند حنية المركب . ثم قطع الحبل ،
واستدار إلى الخلف ليعقد أنشودة حول الذيل .

وتحول لون السمكة إلى اللون الفضي بعد أن كان في الأصل مزيجاً من
اللونين الأرجواني والفضي ، وبدت خطوطها بلون بنفسجي باهت كلون
ذيلها ، وكانت أعرض من يدرجل فتح أصابعها على اتساعها .

أما عين السمكة فبدت كمرايا البريسكوب (منظار الأفق المستخدم في
الغواصات) أو كقديس في أحد المواكب .

وقال الرجل العجوز :

- كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لقتلها . . إنها الآن تستشعر حالة

أفضل مما كانت عليه وهى فى الماء ، وقد أدركت أنها لن تفلت ، وكانت ذكية .

ثم قال :

- إن وزنها يزيد على ألف وخمسمائة رطل ، وقد تكون أزيد من ذلك ، فإذا وصل وزنها بعد إعدادها للبيع إلى الثلاثين وكان سعر الرطل منها ثلاثين سنتاً فكم تدر على من أرباح ؟

وأردف قائلاً :

- إننى أحتاج إلى قلم لحساب ذلك ، إن ذهنى لم يعد صافياً ، ولكننى أعتقد أن ديبادجو العظيم سيكون اليوم فخوراً بى . إننى لا أحس وخزاً فى عظامى ، ولكن يديّ وظهري يؤلمانى حقاً ، وإنى لأتساءل ما هو وخز العظام ؟ قد نكون مصابين به بدون أن ندرى .

أحكم العجوز شد السمكة إلى حنية المركب ومؤخرتها ومقعد المُجَدِّف الكائن فى الوسط .

كانت السمكة ضخمة إلى الحد الذى بدا فيه المركب كأنه يجر بحذائه مركباً أضخم منه بكثير .

وقطع جزءاً من الحبل ، وأوثق به الفك الأسفل للسمكة ، وشده إلى مقدمة رأسها حتى لا ينفتح فمها ، ثم ثبت الصارى بسنادة ، وباستخدام ذراع التطويل أطال قاعدة الشراع ، وبمعاونة العصا ذات الخطاف فك الحبال التى حول الشراع فانبسط ، وبدأ المركب يتحرك ، واستلقى العجوز عند المؤخرة نصف استلقاء ، وأبحر نحو الجنوب الغربى .

لم يكن بحاجة إلى بوصلة لترشده إلى اتجاه الجنوب الغربي ، كان يحتاج فقط إلى الإحساس بالرياح التجارية ، وانتفاخ الشراع .

وقال لنفسه :

- يجدر بي أن ألقى بحبل صغير في البحر بعد أن أزوده بطعم معدني لماع
ملعقِي الشكل لعلني اصطاد به شيئاً أمسك به رمقى ، وأشرب بعض الماء
أرطب به حلقي .

ولكنه لم يجد طعاماً معدنيًا ، وكان ما لديه من السردين قد تطرق إليه
الفساد ، فحصل على بعض أعشاب الخليج الصفراء التي علقت بخطاف
عصاه حينما كانت تسير طافية ، وهزها فسقط منها عدد من « الجمبرى »
الصغير على أرضية المركب ، كان هناك أكثر من اثنتي عشرة ، وجعلت
تتواثب وتقاوم ضاربة الأرض كبراغيث الرمل . ضغط العجوز رءوسها بين
إبهامه وسبابته وأكلها وهو يمضغ قشورها وذيوها ، كانت صغيرة جدًا ،
ولكنه كان يعرف أنها مغذية ، وذات طعم مُستحب .

كان لدى الرجل العجوز جرعتان من الماء في الزجاجة فشرب إحداهما
بعد أن تناول تلك الوجبة .

ومضى المركب يسير مسيراً جيداً برغم المعوقات ، وكان يدير دفة المركب
واضعاً ذراعها تحت إبطه .

كان يستطيع أن يرى السمكة ، وراح يتطلع إلى يديه ، ويشعر بظهره
المستند إلى مؤخرة المركب ليعرف أن ذلك حدث حقيقة ، ولم يكن حلمًا .

وفي أحد الأوقات حين شعر بسوء حاله قرب النهاية ظن أن ذلك ربما
كان حلمًا .

وعندما رأى السمكة تقفز من الماء وتتعلق ساكنة في الهواء قبل أن تسقط ، تأكد له أن هناك أشياء بالغة الغرابة لم يستطع أن يصدقها . وعندئذ لم يستطع أن يرى جيداً ، أما الآن فقد عادت إلى عينيه قوة إبصارها كما كانت دائماً .

وعرف الآن أن هناك كانت السمكة ، وأن يديه وظهره ليست حُلماً .

وقال لنفسه :

- إن الأيدي تشفى بسرعة . لقد نزفت يداي ، وستعمل المياه المالحة على اندماهما ، فمياه الخليج القائمة هي خير ما تلتئم بها الجراح ، وكل ما يجب عليّ أن أعمله هو أن أحتفظ بحدة عقلي ومضائه ، وقد أحسنت يداي عملهما ، ونحن نمضى في طريقنا على خير ما يرام ، وبضم السمكة المغلق ، وذيلها الذى يعلو ويهبط على استقامته ، فإننا نبحر معاً كشقيق وشقيقته .

ثم بدأ ذهنه يفقد قليلاً من صفائه فتساءل :

- هل السمكة هي التي تجرني أم أنا الذي أجرها ؟ فإذا كنت أنا الذي أقطرها فليس هناك اعتراض ، وإذا كانت السمكة داخل المركب وقد راح كل جلالها ووقارها فلا اعتراض لى أيضاً ، ولكننا نبحر معاً ، ونُساق جنباً إلى جنب .

وقال العجوز :

- لتجرني السمكة إذا راق لها ذلك ، إننى أفضّلها فقط بسعة حيلتي وقدرتي على خداعها ، وهي لا تنوى بى شرّاً .

سار المركب سيراً حثيثاً في البحر ، وغمر الرجل العجوز يديه في الماء المالح ، وحاول أن يحتفظ بصفاء ذهنه .

كانت هناك سحب عالية مؤلفة من أكداس مستديرة قواعدها منبسطة أفقياً ، كما بدا فوقهما سحب رقيق شبيه بالصوف على ارتفاع شاهق منها ، فعرف العجوز أن النسيم سيهب طوال الليل .

استمر العجوز يتطلع إلى السمكة ليتأكد من حقيقة ذلك ، ومرت ساعة قبل أن تلتطمه أول سمكة من أسماك القرش .
لم يكن قدوم سمكة القرش مجرد مصادفة .

لقد صعد من الأعماق السحيقة حينما انسابت سحبابة الدم القاتم وانتشرت إلى عمق ميل في البحر ، فأسرع القرش بالصعود على نحو جازم قاطع بلا حذر ، حتى إنه شق سطح الماء الأزرق في أشعة الشمس ، ثم هبط مرة ثانية إلى البحر ، وإذا به يلتقط رائحة الدم ، فشرع يسبح في الطريق الذي كان يسلكه المركب والسمكة .

كان القرش يفقد الرائحة أحياناً ، ولكنه سرعان ما يلتقطها ثانية أو يحس بأثر ضئيل منها ، فيسبح بسرعة وقوة وثبات في طريق المركب .

كان قرشاً كبير الحجم ، وجسمه ملائم للسباحة السريعة كأسرع سمكة في البحر ، وكان كل ما فيه جميلاً ما عدا فكَّيه .

وكان ظهره أزرق كزرقه سياف البحر (سمك أوقيانوسى ضخيم طويل المنقار) ، وبطنه فضياً ، وجلده ناعماً بديعاً . وكانت بنيته مثل سياف البحر فيما عدا فكَّيه الضخمين المغلقين الآن بإحكام وهو يسبح بسرعة تحت

السطح مباشرة ، وزعنفته الظهرية نصلها منبسط خلال الماء بدون أن يتماوج .

وفي داخل شفته المزدوجة المغلقة في فكيه كانت الصفوف الثمانية من أسنانه الهرمية الشكل تنحرف إلى الداخل .

ولم تكن أسنانه كالأسنان الهرمية لمعظم أسماك القرش العادية ، وإنما كانت على شكل أصابع الإنسان حينما تنحنى فتصبح كالمخالب ، وكانت في طول أصابع الرجل العجوز ، وذات حد قاطع كالموسى من الجانبين .

وكانت بنية ذلك القرش ملائمة ليتغذى على كل أسماك البحر . وكان نوعاً سريعاً قوياً ، مسلحاً تسليحاً جيداً ، ولم يكن له أعداء من الأسماك الأخرى .

زاد القرش الآن من سرعته عندما اشتتم الرائحة الطازجة للدم ، وراحت زعنفته الظهرية الزرقاء تشق الماء .

وحينما رآه العجوز قادماً عرف أنه من سمك القرش الذى لا يرهب شيئاً على الإطلاق ، وأنه يفعل ما يريد بالضبط .

أعد العجوز رمحه ، وأحكم تثبيت طرف حبله في مربوط الحبال في قاع حنية المركب وهو يرقب القرش قادماً نحوه ، وكان الحبل قد أصبح قصيراً بعد أن نقص منه الجزء الذى قطعه العجوز ليربط به السمكة .

كان ذهن العجوز قد صفا وصار في أحسن حال ، وامتلأ عزمًا ، غير أن أمله كان ضعيفاً .

وقال لنفسه :

- ما أضحيق العيش لولا فسحة الأمل .
 - ورمق السمكة وهو يرقب دُنُوَّ القرش .
- وهمس لنفسه :

- كان من الممكن أن يكون ذلك حُلماً هو الآخر ، لن أستطيع منع القرش من أن يهلكنى ، ولكنى قد أظفر به .

وقال :

- يا أبا الأسنان . . حظاً تعساً لأمك .

اقترب القرش من مؤخرة المركب وعندما لطم السمكة شاهد العجوز فمه مفتوحاً ، وعينيه العجيبتين ، وطقطقة أسنانه وهى تتحرك حركة سريعة مفاجئة وتطبق على لحم السمكة بالقرب من ذيلها :

وكان رأس القرش خارج الماء ، وظهره يبرز ، واستطاع العجوز أن يسمع صوت تمزق جلد ولحم السمكة الكبيرة عندما طعن رأس القرش بالرمح فى الموضع الذى يتقاطع فيه الخط الممتد بين عينيه مع الخط الممتد من أنفه إلى الخلف .

لم تكن هناك مثل تلك الخطوط ، كان هناك فقط رأسه الأزرق الضخم الثقيل ، وعيناه الكبيرتان ، وفكاه اللذان يبتلعان كل شىء وقد اصطكت أسنانها التى انغرزت فى اللحم .

غير أن الموضع الذى طعنه فيه العجوز كان موضع المخ .

طعنه العجوز بيديه الواهنتين اللتين طالما سالت دماؤهما ، وغرز فيه الرمح بكل قواه .

كانت طعنة بلا أمل ، ولكنه سددها بعزم وتصميم ، واستجمع فيها كل حقه وخبثه وعداوته الشديدة .

تأرجح القرش ، ورأى العجوز عينيه وقد غاضت منها الحياة .

وتأرجح مرة أخرى ، ولف نفسه في أنشوطتين من الحبل .

وعرف العجوز أن القرش قد مات .

غير أن القرش لم يتقبل الموت بتلك السهولة . . انقلب على ظهره وذيله يلطم الماء ، وفكاه يطققان ، وشق سطح الماء كقارب من قوارب السباق .

بدا الماء أبيض اللون حيث كان القرش يلطمه بذيله ، في حين برزت ثلاثة أرباع جسمه بوضوح فوق الماء ، حينما توتر حبل الرمح ، وارتعش ثم انقطع .

ورقد القرش في هدوء لفترة قصيرة طافياً فوق سطح الماء ، وظلّ العجوز يراقبه .

ثم بدأ القرش يهبط إلى أسفل ببطء شديد .

وقال العجوز بصوت مرتفع :

- لقد تناول أربعين رطلاً .

ثم أردف :

- وأخذ رمحي أيضاً ، والحبل كله ، وها هي ذى الدماء تسيل من

سمكتي مرة أخرى ، وسيجتذب ذلك أسماك قرش أخرى .

لم يرق له أن ينظر إلى السمكة بعد الآن منذ أن بتر القرش جزءاً من لحمها
ومثّل بها وشوها . وعندما نهش لحمها كان كأنه ينهش لحمه .

وقال :

- ولكنني قد قتلت القرش الذي هاجم سمكتي ، وكان أضخم قرش
رأيت في حياتي ، ويعلم الله أنني سبق أن رأيت قروشاً ضخمة من ذلك
النوع .

وهمس قائلاً :

- إن اصطيادي للسمكة الكبيرة تحقق به أمل كان أبدع من أن يطول ،
إنني الآن أود لو أن ذلك كان حليماً ، وأن السمكة لم تعلق بخطافي ، وأني
كنت وحدي في فراشي أرقد فوق الجرائد .

بيد أنه عاد يقول لنفسه :

- ولكن الرجل لم يخلق لكي يُهزم . قد يتحطم الرجل إلا أنه لا يهزم ،
وبرغم ذلك فإني آسف لأنني قتلت السمكة .

ثم قال :

- والآن سيגיע الوقت السيء ، وليس معي الآن رمح . إن أبا الأسنان
قاسٍ وقوي وقادر وذكي ، ولكنني كنت أذكى منه .

وقال مستدركاً :

- ربما لم أكن أذكى منه . . ربما كنت فقط أفضل تسليحاً منه .

وصاح قائلاً :

- لا تفكر أيها الرجل العجوز ، امضِ في ذلك الطريق ، وواجه ما قد يحدث .

واستطرد قائلاً :

- ولكن يجب أن أفكر، فالتفكير هو كل ما بقى لى ، التفكير والبيسبول ، وإنى لأتساءل كيف ستروق لديجادجو العظيم الطريقة التى أصببتُ بها القرش فى مخه ؟

وأردف :

- لم يكن هذا شيئاً عظيماً ، فأى رجل يستطيع أن يفعل ذلك . ولكن هل تؤلنى وتعوقنى يداى مثلما آلمنى نخس عظام الكعوب ؟ لست أدرى . إننى لم أصب قط بشيء فى كعبى إلا فى تلك المرة التى لسعتنى فيها سمكة الراى اللساع فى كعبى عندما لامستها وأنا أسبح ، فشلت الجزء الأسفل من ساقى ، وسببت لى آلاماً لا تحتمل .

ثم انثنى يقول لنفسه :

- فكتر فى شىء مرح بهيج أيها الرجل العجوز ، فكل دقيقة تمضى تزيدك قُرباً من البيت ، فأنت تبهر خفيفاً بعد أن فقدت السمكة أربعين رطلاً من وزنها .

كان العجوز يعرف جيداً ما يمكن حدوثه عندما وصل إلى عمق التيار ، ولكن لم يعد أمامه ما يفعله الآن ؛ إذ لا حيلة له فى هذا الأمر .

ولكنه استدرك صائحاً :

- نعم لديّ ما أفعله ؛ إذ يمكنني أن أربط سكينى فى الطرف الغليظ لأحد المجذافين .

فعل ذلك ، وكانت ذراع الدفة تحت إبطه ، وحبل الشراع تحت قدمه .
وقال لنفسه :

-إننى الآن رجل عجوز ، ولكننى لست مجرداً من السلاح .

القسم الخامس



1993

النسيم منعشاً في ذلك الوقت ، والإبحار على خير ما يرام .
تطلع العجوز إلى الجزء الأمامي من السمكة ، فعاوده الأمل .



وفكر قائلاً :

- من السداجة والحماقة أن يفقد المرء الأمل ، هذا بجانب أنني أعتقد أن
اليأس خطيئة .

ثم أردف :

- لا تفكر في الخطيئة ، فقد سبق السيف العذل ، والوقت متأخر الآن .
لقد وُلدت لأكون صياداً ، كما أن السمكة قد ولدت لتكون سمكة . كان
القديس بدرو صياداً . كذلك كان والد ديداجو العظيم صياداً .

ولكنه راق له أن يفكر في كل الأشياء المحيطة به . ولما كان لا يوجد لديه
ما يقرؤه ، وليس معه « راديو » فقد استغرق في التفكير ، وواصل التفكير في
الخطيئة .

وقال لنفسه :

- إنك لم تقتل السمكة فقط من أجل أن تعيش ، ولتبيعها كغذاء

للناس ، وإنما إرضاء لكبريائك واعتدادك بنفسك ، ولأنك صياد . . لقد أحببتها وهى حية ، وأحببتها بعد أن فارقت الحياة ، وإذا كنت تحبها فهل قتلك لها يُعد خطيئة ، أو أن ذلك شيء أكبر من الخطيئة ؟

وصاح العجوز قائلاً :

- إنك تفكر أكثر من اللازم أيها الرجل العجوز ، ولكنك استمتعت بقتل أبى الأسنان ، إنه يعيش على الأسماك التى أعيش عليها أنا الآخر ، وهو ليس قماماً يقتات بالقمامة ، أو مجرد شهية متحركة من أجل الطعام مثل بعض أسماك القرش ، إنه جميل ونبييل ولا يهاب شيئاً .

ثم قال بصوت مرتفع :

- لقد قتلته دفاعاً عن النفس ، وقد أحسنت قتله .

وأردف :

- هذا بجانب أن كثيراً من الأحياء تقتل غيرها من الأحياء بطريقة ما . . إن صيد الأسماك يقتلنى مثلما يحفظ حياتى تماماً .

ثم فكر قائلاً :

- إن الصبى يحرص على حياتى ، ولا يجدر بى أن أخدع نفسى كثيراً .

انحنى فوق جانب المركب ، واقتلع قطعة من لحم السمكة فى الموضع الذى نهشه القرش ، ومضغها مختبراً نوعيتها وحسن مذاقها .

كانت متماسكة وذات عصير له نكهة مثل طعم لحم الماشية ، غير أنها لم تكن من اللحوم الحمراء ، ولم يكن بها خيوط وألياف ، فعرف أنها ستدر

عليه أعلى الأسعار في السوق ، ولكن لم تكن هناك طريقة لمنع تسلل روائحها خلال مياه البحر ، وكان العجوز يدرك أنه مقبل على وقت عسير .

كان النسيم يهب رتيباً منتظماً ، واتجه قليلاً نحو الشمال الشرقي ، فعرف العجوز أن ذلك يعنى أنه لن يتوقف .

رنا العجوز ببصره إلى الأمام ، فلم يتمكن من رؤية أية أشعة ، أو سفن أو دخان أية باخرة .

كانت هناك الأسماك الطائرة وهي تطير صاعدة من حنية المركب متجهة إلى كلا الجانبين ، ويقع طحالب الخليج الصفراء . ولم يكن يرى أى طائر .

أبحر العجوز بمركبه ساعتين ، قابلاً عند المؤخرة ، وهو يمضغ قطعة من لحم سمكة المرلين بين حين وآخر محاولاً أن يخلد إلى الراحة ، وأن يستعيد قوته حين لمح سمكتى قرش ، فصاح بصوت عالٍ كالذى ينبعث من إنسان بدون إرادته حين يشعر بمسماز ينفذ في يده وفي الخشب .

لقد رأى الآن الزعنفة الثانية آتية في إثر الأولى ، واستطاع تحديد صنفى سمكتى القرش بأنهما من النوع ذى الأنف الشبيه بالمجرفة ، وذلك بعد أن لاحظ أن الزعنفة بنية اللون ومثلثة الشكل ، ومن حركات الذيل القوية .

لقد أحست سمكتا القرش برائحة الدماء فاهتاجتا ، واختلط عليهما الأمر بشدة جوعهما ، فلم تعثرا على منبع الرائحة وهما في غمرة احتياجهما ، غير أنهما كانتا طوال الوقت تقتربان .

ضغط الرجل العجوز بقدمه على حبل الشراع بشدة ، وثبت ذراع الدفة ، ثم تناول المجذاف الذى ربطت السكين في طرفه ، ورفع به بخفة قدر

استطاعته ، إذ كانت يدها قد تمردتا من الألم . بسط يديه ثم أغلقهما حول
المجذاف بخفة لتسترخيا ، ثم أغلقهما بإحكام لعله يخلصهما من الألم ،
وحتى لا يجفلا من العمل ، ويحجبا عنه ، وراقب بحياء سمكتى القرش .

استطاع الآن أن يرى رأسيهما المفلطحين ومقدمتهما الشبيهة بالمجرفة ،
وزعنفتيهما الصدريتين العريضتين ذواتين الأطراف البيضاء .

كانتا من أسماك القرش التى تتميز بالشراسة ، والكريهة الرائحة ، والتى
تقتات بالقمامة ، وتتميز بالقتل أيضاً ، وعندما يعرضها الجوع بنابه فإنها قد
تعض مجذاف أحد الزوارق أو دفته .

وهذا النوع من أسماك القرش هو الذى يقضم أرجل السلاحف ،
ويقلبها. عندما تكون نائمة على سطح الماء ، كما أنها تهاجم الإنسان وتنقض
عليه وتهلكه إذا كانت جائعة ، حتى إذا كان المرء غير عالقة به رائحة دم
الأسماك أو المادة اللزجة أو الغروية التى يفرزها السمك .

صرخ العجوز قائلاً :

- يا أسماك القرش الرشيقة هيا . . أقدمى .

ها هما قد أقبلا ، ولكنهما لم يجيئا كما جاء القرش أبو الأسنان من ، لقد
استدار أحدهما ، واختفى عن ناظرى العجوز ، أسفل المركب .

شعر العجوز بالمركب يهتز عندما قفز القرش وجذب السمكة .

أما القرش الآخر فقد أخذ يرمق العجوز بعينيه الصفراوين الضيقتين كما
لو كانا شقين طوليين ، ثم أسرع بفكيه اللذين لهما شكل نصف دائرى ، وقد
فتحهما على اتساعهما ، وانقض على الجزء المبتور من السمكة الضخمة .

كان هناك خط واضح يمتد من قمة رأسه البنى حتى الظهر حيث يتصل
المنخ بالحبل الشوكى ، فطعنه العجوز فى مكان ذلك الاتصال بالسكين المثبته
فى الجداف ثم سحبها ، وسدد إليه طعنة فى عينيه الصفراوين .

ترك القرش السمكة ، وانزلق هابطاً فى الماء وهو يتلع ما قضمه من
لحمها فى حين كان يعانى سكرات الموت .

كان المركب ما زال يهتز والقرش الآخر يدمر السمكة ، فأرخى العجوز
العنان لحبل الشراع فتأرجح المركب بشدة ، فصعد القرش من أسفله ،
وعندما رأى العجوز القرش انحنى فوق جانب المركب ونخسه بشدة ، ولكنه
نخس اللحم فقط ، فالجلد كان سميكاً ، ولم تنغرز السكين فيه إلا على
نحو هزيل ، وبشق الأنفس ، ولم تؤلم الطعنة يدى العجوز فحسب ، بل
أوجعت كتفيه أيضاً .

ولكن القرش صعد مسرعاً ، وبرز رأسه من الماء ، فطعنه العجوز طعنة
قوية بزاوية قائمة فى مركز الجزء المسطح من رأسه ، فسقط أنفه فى الماء ،
واستقر فوق السمكة .

سحب العجوز نصل سكينه ، ونخس القرش مرة أخرى فى نفس
الموضع ، وكان القرش مازال معلقاً بفكيه فى السمكة ، فطعنه العجوز فى
عينه اليسرى ، وظل القرش معلقاً هناك .

قال العجوز :

ـ كلا .

ودفع النصل بين الفقرات والمنخ ، كانت طعنة سهلة هذه المرة ، وأحس
بالغضروف يقطع ويتمزق .

عكس العجوز المجذاف ، ووضع السكين بين فكى القرش ليفتحهما .
وثنى النصل فانزلق القرش تاركاً السمكة .

فقال العجوز :

- اذهب أيها القرش الرشيق ، اهبط إلى عمق ميل ، اذهب لترى
صديقتك ، وربما كانت أمك .

مسح العجوز نصل سكينه ، وأعاد المجذاف إلى موضعه ، وثبت حبل
الشراع الذى انفتح بالهواء ، وجعل المركب يسير في طريقه .

وصاح العجوز :

- لا بد أنها قد أتيا على ربع السمكة ، وعلى أجود الأجزاء فيها . . ليت
ذلك كان حلاً ، وأنى لم أصطد تلك السمكة . إننى آسف لك أيتها
السمكة . لقد ساء كل شيء .

سكت الرجل عن الكلام ، ولم تطاوعه نفسه على النظر إليها الآن .

وبرغم الدماء التى تنزف منها ، وتلاطم الأمواج فوقها ، فما زال لون
ظهرها الفضى الذى يشبه المرآة ظاهراً ، وكذلك خطوطها كانت واضحة .

وهمس قائلاً :

- ما كان لى أن أتوغل هكذا بعيداً فى البحر أيتها السمكة ، لا من أجلك
ولا من أجلى ، أنا آسف أيتها السمكة !

ثم قال لنفسه الآن :

- انظر إلى الرباط الذى يثبت السكين بالمجذاف لترى إن كان قد تمزق ،

ثم اجعل يديك متاهبتين للعمل ؛ إذ مازال هناك المزيد مما سيقابلنا .
اطمأن الرجل على الرباط المثبتة به السكين فوق طرف المجذاف ، ثم
قال :

- كم وددت أن يكون معى حجر لأشحذ عليه السكين .

ثم انثنى يقول مرة أخرى :

- كان ينبغي أن أحضر معى حجراً .

وأضاف قائلاً :

- كان يجب أن تجيء بأشياء كثيرة ، ولكنك لم تحضرها معك أيها العجوز.
على كل حال ليس هذا أوان التفكير فيما ليس معك ، فكّر فيما يمكنك أن
تفعله بما هو موجود لديك .

وقال لنفسه بصوت عالٍ :

- لقد أسرفت فى إعطائى النصيحة والمشورة ، وقد تعبت منهما .

وضع ذراع الدفة تحت إبطه ، وغمر كلتا يديه فى الماء فى حين كان المركب
يمضى قدماً .

ثم قال :

- يعلم الله كم تناول القرش الأخير من لحم السمكة ، ولكن المركب
أصبح أخف الآن .

لم يعد يريد أن يفكر فى الجزء السفلى المتور من السمكة ، إنه يعرف أن
كل ضربة من وثبات القرش كانت لحماً يُمزق ويُتزعج من السمكة التى نشرت

رائحة ممتدة في الماء لجذب كل أسماك القرش في مسار عريض كطريق عام .

فكر العجوز قائلاً :

- كانت سمكة كافية لأن يعيش المرء طوال الشتاء بما تدره من ربح .

وأردف :

- لا تفكر في ذلك ، استرح الآن ، وحاول أن تحتفظ بيديك قويتين لتدافع عما بقي من السمكة ، إن رائحة الدم في يدي لا تعنى الآن شيئاً بالقياس إلى كل رائحة الدماء المنتشرة في الماء ، هذا بالإضافة إلى أن يدي لا تنزفان كثيراً ، وقد يحفظ ذلك النزف يدي اليسرى من التقلص .

وقال لنفسه :

- ماذا يمكنني أن أفكر فيه الآن ؟ لا شيء . يجب ألا أفكر في أي شيء ، وأن أنتظر ما يجيء ، كم أتمنى أن يكون ما فات حلماً حقيقياً ! ولكن من يدري ؟ لعل الأمر ينتهي على خير وجه .

جاء قرش آخر من النوع ذي الأنف الذي يشبه المجرفة . أتى عبر الطريق كالخنزير ، إذ كان له فم من الاتساع بحيث يسمح لك بأن تضع رأسك فيه .

لقد تركه العجوز يهاجم السمكة ثم طعنه في نحه بالسكين المشدودة ، ولكن القرش قفز إلى الخلف وهو يتمايل ويترنح ، وانقصف نصل السكين . توجه العجوز إلى الدفة ، ولم يراقب القرش وهو يغوص ببطء في الماء وحجمه يتناقص عن حجمه الطبيعي إلى حجم أصغر حتى صار بالغ الصغر .

كان ذلك المشهد يفتن الرجل العجوز دائماً ، أما الآن فلم يعن حتى بالنظر إليه .

وقال العجوز :

- لدى الآن الخطاف الذى أستعمله لرفع الأسماك الثقيلة ، غير أنه لا يرمى منه خَيْرٌ. وعندى المجذافان ، وذراع الدفة ، والهاوذة القصيرة .

وأضاف العجوز :

- الآن قد تغلبت القروش على ، إننى أعجز من أن أضربها بالهاوذة حتى الموت ، ولكننى سأحاول ذلك طالما كان معى المجذافان والهاوذة القصيرة وذراع الدفة .

. وضع يديه فى الماء مرة أخرى لتنظيفهما ، كان الوقت متأخراً بعد الظهر ، وهو لا يرى شيئاً سوى البحر والسماء .

ازداد هبوب الرياح فى السماء أكثر من ذى قبل ، وسرعان ما راود العجوز الأمل فى أن يرى البر .

وقال لنفسه :

- لقد حل بك التعب أيها العجوز ، وأنت مُتَعَبٌ من الداخل .

لم تعاود القروش مهاجمته حتى قبيل غروب الشمس .

شاهد العجوز الزعانف البنية قادمة عبر الطريق العريض الذى شقته السمكة فى الماء برائحة دماؤها .

لم تكن القروش تتبع الرائحة ، وإنما كانت تتجه رأساً إلى المركب وهى تسبح جنباً إلى جنب .

دفع ذراع الدفة بقوة ، وثبت جبل الشراع بإحكام ، وبلغ مؤخرة المركب من أجل الهراوة . . كانت يد مجذاف حصل عليها من مجذاف مكسور ، وقطعت بالمنشار ، فأصبح طولها نحو قدمين ونصف القدم . إنه يستطيع أن يستخدمها بيد واحدة فقط بسبب صغر مقبضها ، وأمسكها بيده اليمنى وهو يثنى قبضته عليها بإحكام ، في حين كان يرقب مجيء القروش .

وجاءت سمكتا قرش من نوع القرش الرشيق .

وفكر قائلاً :

- يجب أن أدع أولهما يغرزان جيداً في السمكة ، ثم أضربه على طرف أنفه ، أو على استقامة الجزء العلوي من رأسه .

وقدِمَ القرشان معاً . وحين شاهد أقربهما إليه يفتح فكَّيه ويغرزهما في جانب السمكة الفضى ، رفع الهراوة عالياً وأهوى بضربة عنيفة فوق الجزء العلوي من رأسه العريض ، فشعر به كأنه جسم مطاطي عندما هوت الهراوة فوقه ، كما أحس أيضاً بصلاية عظامه ، فسدد للقرش ضربة قوية أخرى فوق طرف أنفه ، فانزلت مبتعداً عن السمكة .

أما القرش الآخر فكان يسبح جيئةً وذهاباً ، واقترب الآن مرة أخرى بفكيه مفتوحين .

ورأى العجوز قطعاً من لحم السمكة تتساقط بلونها الأبيض من زاوية فكيه حين انقَصَّ عليها ، وأطبق بأسنانه على لحمها .

طوح العجوز بالهراوة ، وأهوى بها على رأسه ، فتطلع إليه القرش ، وانتثر اللحم من فمه .

طوح العجوز بالهراوة ، وأهوى بها عليه مرة أخرى ، فانزلق مبتعداً لبيتلع ما تبقى في فمه . . ارتطمت الهراوة فقط بالجزء المطاطى من رأس القرش .

وقال العجوز :

- تعالَ أيها القرش الرشيق ، أقدم مرة أخرى .

جاء القرش باندفاع شديد ، فضربه العجوز حين أطبق فكيه على لحم السمكة بقوة ، ومن أعلى مستوى استطاع أن يرفع إليه الهراوة ، وأحس هذه المرة بالعظمة الموجودة عند قاعدة المخ ، فضربه مرة أخرى في نفس الموضع ، في حين كان القرش يمزق لحم السمكة ، فأفلتت منه ببطء ، وانزلق إلى أسفل تاركاً السمكة .

أخذ العجوز يرقب مجيء القرش ، ولكن لم يظهر أى منها . ولم يلبث أن رأى واحداً فوق السطح يسبح وهو يحوم في حركة دائرية ، ولم يرزعانفه .

وقال العجوز لنفسه :

- ما كنت أتوقع أن أقتلها ، كنت أستطيع ذلك أيام الشباب ، ولكنني أذيتها أيما إيذاء ، ولن تقوم قائمة لأى منها . لو كان معى مضرب غليظ أستطيع إمساكه بكلتا يديّ لتمكنت من قتل أولهما بكل تأكيد حتى وأنا في هذه السن الآن .

إنه لا يريد أن ينظر إلى السمكة ، إنه يعلم أن نصفها قد قضى عليه .

وكانت الشمس قد غربت حين كان يخوض المعركة ضد القروش .

وهمس قائلاً :

- سرعان ما سيهبط الظلام ، عندئذ أستطيع أن أرى وهج أضواء

«هافانا» وإذا كنت قد أوغلت بعيداً نحو الشرق فسأرى أضواء أحد الشواطئ الجديدة .

وأضاف قائلاً :

- لا يمكن أن أكون الآن على بُعد كبير ، وأمل ألا يكون أحدٌ قد أصابه قلق شديد من أجلي ، وعلى الأقل هناك الصبي الذي سيبتابه القلق بالطبع ، ولكنني متأكد أن لديه ثقة بي ، وسيقلق الكثيرون من عجائز الصيادين ، وسيقلق كثيرٌ غيرهم أيضاً ، إنني أقطن بلدة طيبة .

إنه لم يعد يستطيع أن يتوجه بحديثه إلى السمكة بعد الآن ، فقد أصابها الدمار على نحو رديء إلى أبعد الحدود . غير أنه لم يلبث أن قفز خاطر إلى ذهنه ، فقال محدثاً ما تبقى من السمكة :

- أيها النصف السمكة ، يا من كنت سمكة ، إنني آسف إذ مضيت بعيداً في البحر ، لقد دُمّرَ كلانا . ولكننا قتلنا قروشاً عديدة أنت وأنا ، وأصبنا كثيراً غيرها إصابات بالغة . هلاً قُلتِ لها كم سمكة قتلتها في حياتك أيتها السمكة العجوز؟ إن ذلك السهم فوق رأسك لا يوجد عبثاً .

وراق له أن يفكر في السمكة ، وماذا كانت عساها فاعلة إذا كانت تسبح في البحر حرة طليقة والتقت مع أحد القروش ؟

وقال لنفسه :

- كان ينبغي أن أقطع متقاربك لأحارب به القروش ، ولكن ليس معنى « بلطّة » ، كما أصبحت لا أملك سكيناً ، غير أنني إذا حصلت على متقاربك وربطته في المقذاف فيا له من سلاح ! إذن لَكُنَّا قاتلنا القروش معاً ،

وماذا عساكِ تفعلين الآن إذا جاءت القروش في الليل ؟ ماذا يمكنك أن تفعليه؟

وهنا قال :

- نحاربها . سأحاربها حتى يدركنى الموت .

ولكن في هذا الظلام الجاثم الآن ، وليس هناك أى وهج ، ولا أضواء ، اللهم إلاّ الريح ، والشرع الذى يسحب المركب ، شعر العجوز بأنه الآن ميتٌ ، فالصق إحدى راحتيه بالأخرى ليتحسسها . . لم يزحف الموت إليهما بعد ، وكان باستطاعته أن يستحضر آلام الحياة ببساطة عن طريق فتحهما وإغلاقهما . انحنى بظهره عند مؤخرة المركب ، فأدرك أنه لم يمت بعد كما أبلغته بذلك كتفاه .

وقال لنفسه :

- إننى أعرف كل الصلوات التى وعدتُ بأدائها حين أظفر بالسمكة ، ولكنّ الإعياء أخذ منى كل مأخذ ، حتى لم يعد فى استطاعتى أن أتلوها . . خيراً لى أن أحضر الكيس وأضعه فوق كتفى .

رقد عند مؤخرة المركب وهو يدير الدفة مترقباً أى وهج يبدو فى السماء .

وهمس قائلاً :

- معى الآن نصف السمكة ، وقد أكون محظوظاً فأحتفظ بذلك النصف ، لا بد أن يحالفنى بعض الحظ .

ثم استدرك قائلاً :

- كلا . . فقد انتهكت حُرمة حظك حين توغلت بعيداً في البحر .

ولكنه قال بصوت مرتفع :

- لا تكن ساذجاً سخيماً ، ولتظل متيقظاً ، وأدرِ الدَّفَّةَ ، فلعله ما زال في انتظارك كثير من الحظ .

ثم قال :

- كم أود أن أشتري بعضاً منه ، إذا كان هناك مكان يبيعه فيه .

وهنا سأل نفسه :

- بماذا أستطيع أن أبتاعه ؟ هل يمكنني أن أشتريه برمح مفقود ، وسكين مكسورة ، ويدين رديتتين عليتين ؟

ثم قال :

- يجب أن تسعى نحو ذلك ، فقد حاولت أن تشتريه بأربعة وثمانين يوماً في البحر ، ومن ثم باعتته إياه تلك الأيام أيضاً بالمثل .

وفكر في أعماقه :

- يجب ألا أفكر ذلك التفكير التافه ، فالحظ شيء يجيء في أشكال عديدة، ومن ذا الذي يستطيع أن يدركه ويتعرف عليه ؟ سأخذ بعضاً منه على أي شكل كان ، وسأدفع فيه ما يطلبون .

ثم قال :

- كم أود أن أرى وهج الأضواء ، إنني أتمنى أيضاً كثيراً من الأشياء ، ولكن ذلك الوهج هو الذي أتمناه الآن .

وحاول الآن أن يتخذ وضعاً أكثر راحة ليدير الدفة ، وأدرك من الآلام
التي يعانيتها أنه لم يمّت بعد .

ثم رأى انعكاسات الأضواء الساطعة المنبعثة من المدينة في الوقت الذي
حدده بأنه حولى العاشرة مساءً .

لقد أدرك تلك الأضواء بإحساسه في أول الأمر ؛ لأنها كانت أضواءً في
السماء قبل طلوع القمر ، ثم ظل مرآها ثابتاً عبر المحيط الذي كان مضطرباً
هائجاً مع ازدياد النسيم .

أدار الدفة نحو الوهج ، وأدرك أنه سرعان ما سيتقدم شيئاً فشيئاً ليسير
مع التيار .

وقال لنفسه :

- الآن أوشكت المتاعب أن تنتهى . . من المحتمل أن تهاجمنى القروش
مرة أخرى ، ولكن كيف يستطيع المرء أن ينازها تحت جناح الظلام بدون أن
يكون معه سلاح ؟

تجمدت أعضاء العجوز من برودة الليل ، وأصبحت مصدر إزعاج له ،
وكانت جروحه ، وكل الأجزاء المتوترة من جسده ، تسبب له ألماً مُضْماً .

وقال :

- أتمنى ألا أقاتل مرة أخرى ، آمل كثيراً ألا أخوض معارك أخرى .

غير أنه عندما انتصف الليل خاض معركة أخرى ، وكان يعلم هذه المرة
أن القتال لا جدوى منه .

جاءت القروش بأعداد وفيرة ، واستطاع فقط أن يرى الخطوط التي رسمتها زعانفها في الماء ووميضها الفوسفوري عندما انقضت على السمكة ، فراح يضربها فوق رءوسها بهراوته ، وسمع فكوكها تنشق ، وأحس باهتزاز المركب عندما نزلت القروش تحته .

وظل يضرب يائساً تجاه كل ما يستطيع أن يشعر به أو يسمعه ، ثم أحس بأن شيئاً أمسك بالهراوة ، وأفلتت منه .

انتزع ذراع الدفة وأخذ يضرب به بكلتا يديه ويغرزها المرة تلو المرة ، ولكن القروش صعدت الآن إلى حافة حنية المركب واحداً وراء الآخر ، وتجمعت معاً وهي تمزق لحم السمكة ، وتنتزعها قطعة قطعة ، وقد بدت متوهجة تحت البحر ، ثم استدارت القروش لتجىء مرة أخرى .

وتقدم أحد القروش في النهاية من رأس السمكة فأدرك العجوز أن السمكة قد انتهت ، وطوح بذراع الدفة وأهوى به فوق رأس القرش الذي تعلق فكاه في رأس السمكة الضخم الثقيل والذي أخفق في تمزيقها ، وأهوى بذراع الدفة على رأس القرش مرة ومرتين ، وعاود الكثرة ، وإذا به يسمع صوت تكسر ذراع الدفة ، فطعن القرش بالشريحة المتبقية من طرفها الغليظ ، فشعر بها تنغرز ، فأدرك أنها حادة ، وعاود الطعن بها ، فابتعد القرش وهو يتمايل ويترنح ، وكان هذا آخر قرش بقى من مجموعة القروش ، ولم يعد هناك ما يأكلونه .

إن العجوز الآن يتنفس بشق الأنف ، ويحس بطعم غريب في فمه . . . كان طعماً نحاسياً حلواً ، فاعتراه الحرف لحظة .

بصق في المحيط قائلاً :

- تناولها أيتها القروش الرشيقة ، واحلمى أنك قتلت رجلاً .

إنه يعرف أنه غلب على أمره في النهاية ، وأنه لا علاج لذلك . وعاد إلى مؤخرة المركب ، ووجد الطرف المفلول من ذراع الدفة يمكن إدخاله في الفتحة الضيقة المستطيلة بها ، وأن ذلك يكفي لتمكينه من إدارة دفة المركب ، ولف الكيس حول كتفيه ، وجعل المركب يسير في طريقه .

أبحر العجوز الآن بسهولة ورفق ، وبلا مبالاة ، بدون أن تكون لديه أفكار أو أية مشاعر من أى نوع .

لقد مضى كل شيء الآن ، وأقلع بمركبه ميمماً وجهه شطر ميناء موطنه برباطة جأش على نحو مُرضٍ وبذكاء على قدر استطاعته .

هاجمت القروش المركب في أثناء الليل كما يفعل شخص ما حين يلتقط الفئات المتبقية فوق المائدة .

لم يُعر العجوز القروش اهتماماً ، ولم يُلقِ بالآ لأى شيء سوى إدارة الدفة وتوجيهها ، ولاحظ فقط كيف يسير المركب الآن في سهولة وبطريقة حسنة مرضية ، حيث لم يعد يعوقها ثقل كبير بجانبها .

وقال في نفسه :

- ها هو ذا المركب يمضى سليماً لم يصبه ضَرٌّْ بأى حال ، عدا ذراع الدفة ، وهذا يمكن تعويضه بسهولة .

استطاع أن يشعر أنه يسير مع التيار الآن ، وأنه يرى أضواء المستعمرات الساحلية على طول الشاطئ .

عرف الآن أين كان ، وأنه يمضى قُدماً نحو موطنه .

وقال :

- إن الريح صديقة لنا بأية حال .

ثم أضاف :

- أحياناً ، أما البحر العظيم فهو مع أصدقائنا ومع أعدائنا .

وهمس قائلاً :

- وفراشى . . إنه صديقى .

واستطرد قائلاً :

- إنه فراش بكل ما فى الكلمة من معنى ، وسيكون شيئاً عظيماً . . إنه مريح عندما تُهزم .

ثم قال :

- لم أكن أعرف قط أنه مريح إلى هذا الحد .

وتساءل قائلاً :

- ومن الذى هزمك ؟

أجاب بصوت عالٍ :

- لا شيء . . أنا الذى أوغلت بعيداً .

وعندما دخل مركبه إلى الميناء الصغير ، بدت الشرفة مطفاة الأضواء ،
فعرف أن الجميع فى فراشهم .

كان النسيم يهب ، ثم أخذ الآن يشتد ، غير أن الهدوء كان يسود الميناء ،
وسار بمركبه إلى البقعة الصغيرة التى يكثُر فيها الحصى تحت الصخور .

لم يكن هناك أحد ليمد له يد المساعدة ؛ لذا دفع المركب إلى الساحل قدر استطاعته ، ثم حَظًا خارجة ، وشده إلى إحدى الصخور .

خلع الصارى من مكانه ، وطوى حوله الشراع وربطه ، ثم حمله على كتفه وبدأ يصعد ، وهنا عرف عمق ما حلَّ به من تعب . . توقف لحظة وتطلع إلى الخلف ، فشاهد من خلال الأشعة المنعكسة من ضوء الشارع ذيل السمكة الضخم في وُضْع رأسى خلف مؤخرة المركب ، ورأى عمودها الفقري أبيض عارياً ، وكتلة الرأس القائمة بمنقارها البارز ، وكان ما بينهما مجرداً من اللحم .

وعاود الصعود مرة أخرى ، وعند القمة سقط ووقد بعض الوقت ، والصارى على كتفه .

حاول أن ينهض ، ولكن ذلك كان شاقاً عليه ، فجلس هناك والصارى فوق كتفه ، ونظر إلى الطريق .

لمح قطة تمر في الجانب البعيد وهي تمضى إلى حال سبيلها ، فراح العجوز يراقبها .

وأخيراً أنزل الصارى ونهض مستوياً على قدميه ، التقط الصارى ووضعته على كتفه واستأنف سيره ، ولكنه اضطر إلى الجلوس خمس مرات قبل أن يصل إلى كوخه .

أسند الصارى إلى الجدار داخل الكوخ ، وعثر في الظلام على زجاجة ماء فشرب منها جرعة ، ثم تمدد فوق فراشه ، وجذب البطانية فوق كتفيه ثم فوق ظهره وساقيه ، ونام ووجهه إلى أسفل فوق أوراق الصحف ماداً ذراعيه على استقامتهما ، جاعلاً راحتي يديه إلى أعلى .

كان نائماً حين جاء الصبى فى الصبح ، ونظر من خلال الباب .
اشتد هبوب الريح حتى إن القوارب انحرفت عن خطوط سيرها فلم
تتمكن من مواصلة السير ، وكان الصبى قد نام فى ساعة متأخرة ، ثم جاء
إلى كوخ الرجل العجوز كعادته كل صباح .
نظر الصبى إلى العجوز فوجده يتنفس ، ثم رأى يديه فانخرط فى البكاء ،
وخرج فى هدوء ليجىء له ببعض القهوة .
وظل الصبى يبكى طوال الطريق .

تجمع كثير من الصيادين حول المركب وهم ينظرون إلى ما كان مربوطاً إلى
جانبه ، وكان أحدهم فى الماء وقد ثنى بنظونه ، وأخذ يقيس هيكل
السمكة بخيط .

لم يهبط الصبى إلى مكان المركب ، فقد ذهب إلى هناك من قبل ، وكان
أحد الصيادين يعنى بالمركب من أجله .

صاح أحد الصيادين :

- كيف حاله ؟

فأجابه الصبى صائحاً :

- إنه نائم .

لم يُبال الصبى بأنهم رأوه يبكى وقال :

- أرجو ألا يزعمه أحد .

وقال الصياد الذى كان يقيس هيكل السمكة :

- كانت تبلغ من الطول ثمانية عشر قدماً من الأنف إلى الذيل .

فقال الصبى :

- إننى أصدق ذلك .

ومضى الصبى إلى الشرفة ، وطلب إناءً من القهوة ، وقال :

- ساخنة وممزوجة بمقدار وافر من اللبن ، وفيها السكر .

- أى شىء آخر ؟

- كلا .. وسأرى فيما بعد ماذا يأكل .

قال صاحب الشرفة :

- يا لها من سمكة ! لم ير أحد قط مثل هذه السمكة ! على أن السمكتين

اللتين حصلت عليهما بالأمس كانتا رائعتين .

فقال الصبى :

- اللعنة على سمكاتى .

وشرع فى البكاء مرة أخرى .

وساله صاحب الشرفة :

- ألا تريد شرباً من أى نوع ؟

فقال الصبى :

- كلا .. وقل لهم ألا يزعموا سانتياجو ، وسأعود ثانية .

- أبلغه كم أنا آسف .

رد عليه الصبي قائلاً :

- شكراً .

- حمل الصبي إناء القهوة الساخنة وصعد به إلى كوخ الرجل العجوز ،
وجلس بجانبه حتى استيقظ ، لقد بدا عليه في إحدى المرات كما لو كان
يستيقظ ، ولكنه عاد واستغرق في نوم عميق .

غادر الصبي الكوخ إلى الطريق ليستعير بعض الأخشاب لتسخين
القهوة .

وأخيراً استيقظ العجوز ، فقال له الصبي :

- لا تنهض لتجلس . . اشرب هذا .

وصب بعض القهوة في كوب .

تناولها العجوز واحتساها ، قائلاً :

- لقد تغلبوا علىّ يا مانولين .

وأردف :

- حقاً لقد انتصروا علىّ .

فقال الصبي :

- إن السمكة لم تهزمك .

- حقاً ، ولكن حدث ذلك فيما بعد .

- إن بدريكو يعنى بالمركب والمعدات . . ماذا تريد أن نفعل برأس السمكة؟

- دع بدريكو يقطعها لتستعمل فحانخاً للأسماك .

- ومنقارها؟

- احتفظ به أنت إذا كنت تريده .

فقال الصبى :

- إننى أريده . . والآن يجب أن نعد خططنا حول الأشياء الأخرى .

- هل بحثوا عنى؟

- طبعاً ، مع خفر السواحل والطائرات .

فقال العجوز :

- المحيط فسيح الأرجاء والمركب صغير ، وتصعب رؤيته .

لاحظ العجوز كم هو سائرٌ أن تجد أحداً تتحدث إليه بدلاً من التحدث فقط إلى نفسك وإلى البحر .

ثم قال :

- لقد افتقدتك . . ماذا اصطدت؟

- واحدة فى اليوم الأول ، وواحدة فى الثانى ، واثنين فى الثالث .

- حسن جداً .

- والآن سنصطاد معاً مرة أخرى .

- كلا . . إننى لست محظوظاً ، لم يعدلى حظ على الإطلاق .

فقال الغلام :

- إلى الجحيم أيها الحظ ، سأجلب لك الحظ معى .

- وماذا ستقول أسرتك ؟

- لا يعينى هذا ، لقد اصطدت سمكتين بالأمس ، ولكننا سنخرج

للصيد معاً من الآن ، فإننى مازلت فى حاجة إلى تعلم الكثير .

- يجب أن نأتى برمح قاتل قوى ، وأن يكون معنا دائماً فوق سطح

المركب ، ويمكنك أن تصنع نصله من صفيحة قوية من صفائح سيارة فورد

قديمة ، ويمكننا أن نقوم بصقله وشحذه فى « جوانا باكوا » . يجب أن يكون

حاداً ، على ألا يكون من الفولاذ القابل للكسر .

لقد انكسرت سكينى .

- سأحضر سكيناً أخرى ، وسأشحذ الصفيحة التى سنصنع منها

الرمح .

ثم قال الصبى :

- كم يوماً يستمر هذا النسيم الشديد ؟

- ربما ثلاثة أيام ، وربما أكثر .

فأضاف الصبى :

- سأنظم كلى شىء . وعليك أن تعنى جيداً بيديك أيها الرجل العجوز .

- إننى أعرف كيف أعتنى بهما . . لقد بصقت فى الليل شيئاً غريباً ،

وأحسست أن شيئاً فى صدرى ينسحق بالألم .

فقال الصبى :

- اعتن بذلك أيضاً . . استلقِ أيها العجوز وسأجيثك بقميصك النظيف
وبشئء تبليغ به .

عندئذ قال له العجوز :

- أخضِرْ أى صحيفة من الصحف التى صدرت فى الوقت الذى
تغيثُهُ .

- يجب أن تسترد عافيتك سريعاً ، فهناك الكثير الذى أستطيع أن
أعلمه ، ويمكنك أن تُعلمنى كل شئء ، وإلى أى مدى عانيت ؟

فقال العجوز :

- كثيراً .

قال الصبى :

- سأجيثك بالطعام والصحف ، استرح جيداً أيها الرجل العجوز ،
سأحضر دواءً ليديك من مخزن العقاقير .

- لا تنس أن تخبر بدريكو أن رأس السمكة له .

- كلا . . سأتذكر ذلك .

وحين خرج الغلام من الباب ، هبط إلى الطريق الصخرى المرجانى
البالى ، وقدمت بعد الظهر مجموعة من السائحين إلى الشرفة ، وكانت معهم
امراة تتطلع إلى الماء ، فرأت بين علب البيرة الفارغة وسمك البركودة الميت

عموداً فقرئاً طويلاً أبيض اللون منتهياً بذيل ضخم في وضع رأسى وهو يتأرجح مع حركات المد والجزر ، في حين كانت الريح الشرقية تهب فوق بحر عميق خارج مدخل الميناء .

سألت المرأة أحد السقاة :

- ما هذا ؟

وكانت تشير إلى العمود الفقرى للسمكة الضخمة الذى أصبح الآن مجرد نقاية في انتظار أن تجرفها مياه المد والجزر .

فأجابها الساقى بلغة انجليزية ركيكة :

- سمكة قرش .

وكان يحاول أن يشرح لها ما حدث .

- لم أكن أعرف أن أسماك القرش لها مثل تلك الذيول الرشيقة ، وبذلك الشكل البديع .

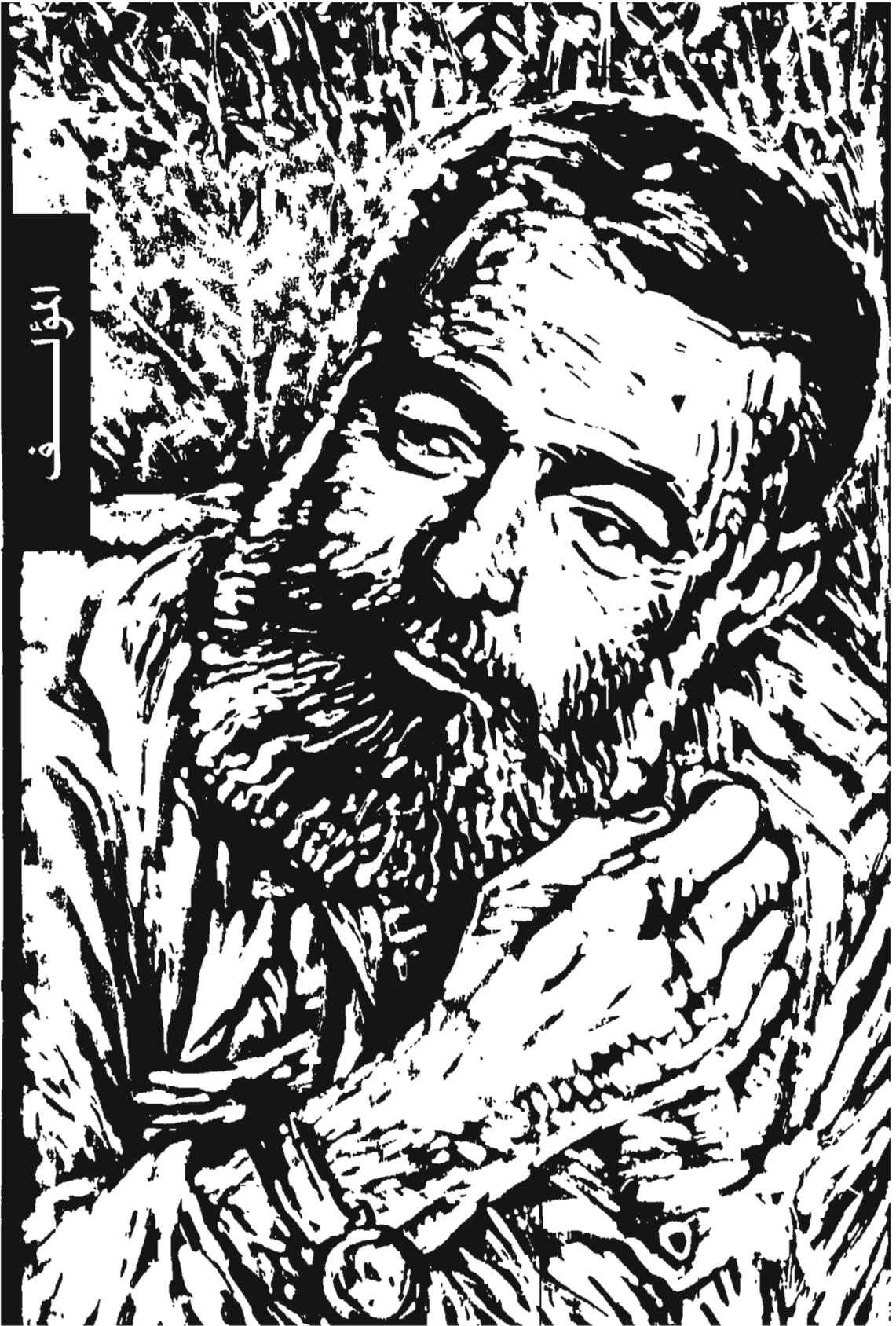
فقال زميل لها :

- ولا أنا أيضاً .

وفي أعلى الطريق كان الرجل العجوز قد أسلم نفسه للنوم مرة أخرى داخل الكوخ .

كان لا يزال نائماً على وجهه ، في حين جلس الصبى إلى جواره يراقبه .

وكان العجوز يحلم بالأسود والسباع .



الماء

إرنست هيمنجواي

إرنست هيمنجواي روائي
وقصاص أمريكي من أشهر
وأعظم كُتّاب القرن العشرين

حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٤ ، كما فاز بجائزة « بوليتزر »
قبل ذلك بعام عن روايته « العجوز والبحر » .

رأت عيناه النور في الحادى والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٩ في أوك
بارك بولاية « إلينوي » .

كان والد إرنست هيمنجواي - الدكتور كلارنس إدموندز هيمنجواي -
يعمل طبيباً كممارس عام ، وكانت والدته - جريس هول هيمنجواي - قد
عرفت والده منذ أن كانا يتلقيان العلم في المدرسة العليا بأوك بارك - وهي
مدينة من ضواحي « شيكاغو » وهي التي وُلد بها إرنست ، الطفل الثانى
الذى رُزقَ به هيمنجواي ، وأول أبنائه الذكور . وأضحى الأسرة - فيما بعد -
مكونة من ستة أطفال : أربع بنات وولدين ، بالإضافة إلى الوالدين .

وفي عام ١٨٩٩ الذى وُلد فيه هيمنجواي ، وَقَّع والداه عقداً لبناء كوخ
صيفى على شواطئ بحيرة « والون » التى كان يُطلق عليها في ذلك الوقت
« بحيرة الدب » ، بالقرب من مدينة « بيتوسكى » شمال « ميتشيجان » .

وقد أصبحت هذه البحيرة والبيئة المحيطة وضواحيها مصدر إلهام
لإرنست في كثير من قصصه القصيرة . . . وهي أيضاً المنطقة التى تدور فيها
قصة « النهر ذو القلبيين الكبيرين » حيث مارس فيها « نك آدامز » أول
خبراته في مباحج الحياة وأحزانها ، وواجه فيها الحب ، والعنف ، والموت .

وكان الصبى إرنست هيمنجواي يقضى شهور الصيف على شواطئ

بحيرة « والون » حيث تدرّب فيها على إقامة خيمته ، ومارس فيها الصيد والطراد ، وصيد الأسماك . وهناك نشأ الارتباط بينه وبين الخلاء والهواء الطلق الذي تطور إلى وُلَع ، وشَغِفَ بها طوال حياته .

وتعلّق إرنست - مثل أبيه - بالطبيعة وأحبّها . وقد أعطاه والده قصبه صيد وهو في سن الثانية ، وأعطاه بندقية وهو في سن العاشرة . وكان إدموندز هيمنجواي يجيد الطهى ، ويجب كل أنواع الأسماك ، وكان ماهراً في الصيد والقنص ، ويهيم بجمع الآثار القديمة وما له صلة بعالم الحيوان . وكان حادّ النظر ، يرى على مسافات بعيدة ، وامتاز ببراعته في إطلاق بندقيته التي كان يصيب بها الهدف بدقة بالغة . وعلم إرنست فن الرماية ، وصيد الأسماك ، وإقامة الخيام . وكان إرنست وهو صبي يصحب أباه حينها يُسْتَدْعَى لإسعاف حالات طارئة حول « بيتوسكى » .

وكان « نك آدمز » بطل بعض قصص إرنست هيمنجواي المبكرة ، يصحب والده - الذي كان طبيباً هو الآخر - في مثل هذه الاستدعاءات .

وأعطى إرنست هيمنجواي لأبيه شكلاً مثاليّاً في بعض قصصه ، كما يفعل أغلب المراهقين من الشباب ، فبالنسبة لإرنست في مرحلة مراهقته أصبح مدى إبصار أبيه أكثر حدة ، وعضلاته أكثر قوة ، غير أن الطريقة التي مات بها والده كانت موضوعاً مؤلماً لإرنست ، ففي عام ١٩٢٨ كان إدموندز هيمنجواي مريضاً ومصاباً بالإحباط ، واستعصى عليه النوم ، فانتحر بمسدس والده الذي كان من مخلفات الحرب المدنية .

كانت فكرة الموت متسلطة على إرنست الشاب تسلطاً مقلقاً غير سويّ ، وكثيراً ما كان يتأمل في الانتحار ، ولذلك نراه يكرر انتحار الآباء مراراً .

وعلى سبيل المثال نجد والدك أدامز يقتل نفسه ، كما فعل روبرت جوردون في رواية « لمن يدق الناقوس ؟ » . ولطالما خشى إرنست أن يفقد قواه البدنية والعقلية عندما تتقدم به السن ، ومثلما فعل أبوه أنهى حياته بإطلاق الرصاص على نفسه في أثناء فترة انتابه فيها إحباط شديد .

وهنا تبرز أمامنا أسئلة سيكولوجية عن العلاقة بين إرنست والديه . . الأمر الذي يتطلب مزيداً من البحث والاستقصاء .

حين نضج إرنست كان في حاجة مستمرة إلى تأكيد ذاته ، وإثبات تفوقه على الآخرين ، فشكل نفسه في قالب أبيه من حيث إخضاع المرء وحقوقه إخضاعاً كاملاً لسلطة الأب ، فتقمص بدوره شخصية ذلك الوالد ، برغم ميله واستمتاعه في معظم حياته وهو كبير بمناداة والده بلقب « بابا » كما كان يناديه وهو طفل . لم يصفح قط عن والدته حين كانت تنتمر على أبيه ، كما لم يصفح عن والده لسماحه لها بأن تستأسد عليه .

تلقى إرنست هيمنجواي تعليمه الأساسي في مدارس أوك بارك الرسمية . وفي المدرسة الثانوية كان متفوقاً في اللغة الإنجليزية ، ومتوسطاً في غيرها من المواد الأخرى . عمل مراسلاً صحفياً في الصحيفة المدرسية ، وكان ذلك أول احتكاك له بالصحافة التي مهدت له السبيل للدخول إلى العالم خارج نطاق أوك بارك . وقد بدأ في كتابة القصص حين كان في الصف قبل الأخير بالمدرسة الثانوية ، متخذاً من نفسه عادة بطلاً لها في مواقف صعبة . واستمر يكتب القصص في المجلة الأدبية التي تصدرها المدرسة العليا ، وكان يصوغها على غرار وينج لاردنر الذي كان حين ذاك كاتباً رياضياً معروفاً ، يحرر عموداً خاصاً في صحيفة شيكاغو تريبيون ، وعلى غرار

القصص العنيفة للحياة البدائية التي كان يكتبها الروائي والقصاص الأمريكي جاك لندن (١٨٧٦ - ١٩١٦ م) . وظهرت موهبته - التي حددت فيما بعد مشوار حياته في دنيا الصحافة والإبداع القصصي - عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية .

وكان إرنست هيمنجواي يهتم اهتماماً عميقاً بكل أنواع الرياضة ، وكان يفضل دائماً حياة المعسكرات والمخيمات ، ورياضة التجديف ، والسباحة ، وصيد الأسماك ، ومباريات الرماية . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره مارس رياضة الملاكمة ، واكتشف موهبته في ذلك المجال ، وأصبح بمرور الوقت من هواة الملاكمة البارعين .

توقع أبوه أن يحتذى إرنست حذوه . في حين حاولت الأم بميولها الموسيقية أن تجعل منه عازف فيولونسيل ، ولكن جميع محاولاتها باءت بالفشل .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره هرب من المنزل ، ولكنه عاد إليه ثانياً ، وتخرج في المدرسة الثانوية في يونيو من عام ١٩١٧ . وطرح التعليم الجامعي جانباً ، ولكنه تلقى فيما بعد تعليماً متقطعاً في فرنسا .

وبجهد عمه تايلر حصل إرنست هيمنجواي على وظيفة مراسل «كانساس سيتي ستار» . وكانت هناك بعض الأحاديث عن التحاقه بالجيش بعد أن أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ، ولكن أباه عارض في ذلك لصغر سن ابنه ، كما أن إرنست لم يصر على هذا الأمر .

تاق إرنست إلى الابتعاد عن مراقبة أعين والديه ، وإلى أن يضرب بنفسه في فجاج الأرض . كانت كانساس مدينة خشنة مضطربة تموج بنشاط صاخب ، بالإضافة إلى أعمال العنف والجرائم وتجارة الجنس ، وقام المراسل

الشاب بمهامه في المستشفيات والمحاكم ، ثمَّ أدخله إلى العالم السفلي من حياة المدينة الأمريكية المتمدنية المتحضرة . وقد زودت تلك الخبرات هيمنجواي مباشرة بمادة كثير من قصصه المبكرة ، وأسهمت بطريق غير مباشر في تطور الإمتاع العقلي الواقعي إلى حد القسوة ، بطريقة مضادة «للكليشيات» الخلقية ، والوعظ المهذب الرقيق المتكلف .

وربما كان أهم ما اكتسبه إرنست في عمله بكانساس سيتي ستار هو تأثيرها على أسلوبه ، فقد تدرب على عملية التحرير الصحفي ، ومن فضائل ذلك : الموضوعية ، والإيجاز ، والوضوح ، وتعلم هيمنجواي في كتابته أن يستعين بالجملة القصيرة البسيطة الصريحة ، وأن يتجنب الصفات الوهمية غير الموضوعية . وإذا كانت الأسماء والأفعال بسيطة فإن القارئ سيجد الاستجابة المناسبة التي تثيره عاطفياً .

وفوق كل شيء ، يجب أن تكون الكتابة الصحفية مقروءة . وقد أثرت الصحافة الشعبية تأثيراً قوياً على النثر الأمريكي بعد الحرب المدنية . فالروائي والكاتب الفكاهي الأمريكي مارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠) ، والروائي القصاص الأمريكي ستيفن كرين (١٨٧١ - ١٩٠٠) برزا في ميدان الأدب القصصي من خلال خلفية صحفية ، وهما ضمن القلة التي كان لها تأثير أدبي مباشر على هيمنجواي . إن أسلوبها الثرى يحاكي اللغة المستعملة في الحياة اليومية ، ويتعد عن الأسلوب الأكاديمي المنمق المزخرف الذي نجده في تقاليد «نيو إنجلاند» .

قدم هيمنجواي طلباً إلى الصليب الأحمر الأمريكي ليعمل سائقاً لعربات إسعاف مستشفيات الميدان ، وانتقال من «كانساس سيتي ستار» في أبريل عام ١٩١٨ قبيل استدعائه للعمل في الصليب الأحمر .

وأبحر هيمنجواى متجهاً إلى مسرح العمليات الحربية في أوروبا وهو ممتلئ بروح المغامرة ، وكان يلتهب حماساً إلى خوض غمار الحرب . وتوقف في « سكيو » التي تبعد عن « ميلانو » في شمال إيطاليا بحوالى عشرين ميلاً . ووجد أن عمله الروتيني كسائق لعربات الإسعاف ليس فيه إثارة كافية . فتطوع للعمل في « كاتين » الخط الأمامى من الجبهة ، وأُرسِلَ إلى « فوسالتا » على جبهة نهر « بيافي » . وهناك أُصيب هيمنجواى بجراح بالغة في الهجوم الذى شنه الجيش النمساوى بمدافع « الهاون » ، والمدافع الرشاشة ، وعانى من جراح متعددة في ساقه ، وكان أخطرها رصاصة من مدفع رشاش مزقت ركبته اليمنى ، وبرغم عجزه هذا نجح في حمل جندي إيطالى جريح إلى مكان آمن . وقد مُنِحَ وسام الشجاعة الفضى و صليب الحرب لقيامه بذلك العمل البطولى ، ورُفِّعَ إلى رتبة « ملازم أول » بالجيش الإيطالى النظامى .

وبعد أن أُسِفَ هيمنجواى في مستشفى الميدان ، نُقلَ إلى مستشفى الصليب الأحمر الأمريكى بميلانو ، حيث أُجريت له جراحة استخراج الرصاصة من ركبته اليمنى ، ورُكِّبَ لها غطاء بلاستينى . واسترد عافيته بعد عدة أشهر ، وقام برحلات قصيرة في العطلات متكئاً على عكاز . وقد حاول العودة إلى عمله فى الصليب الأحمر . وفى النهاية سُفِيَ من جراحه ، ومن نزواته الرومانتيكية فى الحرب .

وفى أثناء وجود هيمنجواى فى المستشفى وقع فى حب ممرضة أمريكية ، وعرض عليها الزواج ، غير أن « آنيس فون كوروسكى » لم تأخذ الموضوع مأخذ الجد ، وشجعتة على العودة إلى الولايات المتحدة ، فى حين بقيت هى فى أوروبا . . . وتعددت المراسلات بينها . وظلت مستمرة عبر المحيط

الأطلنطي ، حتى أخبرته أنها أحبت ضابطاً شاباً بالجيش الإيطالي . شعر إرنست في ذلك الوقت بالقهر والحزن ، ولكنه لم يلبث أن شُفي من ذلك الحب . واستخدم تلك الخبرة التي مر بها أساساً لقصة ساخرة تبث الشك في طيبة الدوافع البشرية ، وكان عنوانها : « قصة قصيرة جداً » .

كانت « أنيس » نقطة انطلاق هيمنجواي في تصويره لشخصية كاترين باركلي بطلة رواية « وداعاً للسلاح » . وكانت خبرته بأكملها في إيطاليا هي المادة الخام لهذه الرواية .

ويسهل على المرء أن يدرك حياة هيمنجواي في أعماله الروائية والقصصية ، ولكنها ليست مماثلة لها .

وكان تأثير خبرة الحرب على هيمنجواي عميقاً على مدى عمره .

وفي روايتي « الشمس تشرق أيضاً » ، « وداعاً للسلاح » اللتين تعتبران من أنجح رواياته ، نجد أن أبطالهما ، بصورة خاصة ، لا يتميزون بالبطولة ، وإنما تكمن صفاتهم الرئيسية في حساسيتهم تجاه قسوة الحياة وخلوها من المعنى . لقد شوهتهم الحرب ، أو أصابتهم بالإرهاق والتعب ، والضجر والملل والحزن والاشمئزاز ، والسخرية من دوافع السلوك البشري ، أو جعلتهم يعانون من العنف والموت ، أو أصيبوا بالهلع والرعب .

ولكنه في بعض أعماله الأخيرة - وخاصة « عبر النهر وإلى الأشجار » سمح هيمنجواي لصورته العامة كشخص غريب المظهر ، عنيد قاس صارم حازم خشن قوى صلب العود أن تفتحم فنه وتدخل عنوة فيه . وكان ذلك من أعراض انحذار الفنان وأفول نجمه .

قرأ بعض النقاد أعمال هيمنجواي وأصدروا حكمهم عليه في وهج

وسطوع موقفه العقلي ومزاجه وحالته النفسية المثيرة للاعتراض والرفض ، ويؤكد البعض الآخر على أن هيمنجواى يجذب القراء بقوة صورته الأسطورية أكثر من قوة كتابته ، ولكنّ هناك شيئاً مؤكداً وهو أن وجود تلك الصورة الأسطورية قد أدى إلى نقد أفرط في تبسيط فن ورؤية هيمنجواى إلى حدّ نتج عنه تشويبه وسوء فهمه .

وحين رجع هيمنجواى من أوروبا إلى أوك بارك احتفت به أسرته ، وكرّمه أصدقاءه والمجتمع ، ولكن سرعان ما شاب التوتر جو الأسرة ، وقد دفعته تلك الفترة من حياته إلى كتابة قصة قصيرة بعنوان : « بيت الجندي » . وتوتّق والده منه أن يستقر معزّزاً مكرماً محترماً .

وفي عام ١٩٢٠ حصل إرنست على وظيفة في « تورونتو » كمراقب لصبي مقعد مصاب بالشلل . كان لديه متسع من وقت الفراغ . وبجهود والد الصبي حصل إرنست على وظيفة مراسل لتورونتو ديلي ستار ، وكاتب مقالة خاصة في جريدة « ستار » الأسبوعية . وظل إرنست يكتب في الصحيفتين طوال أربع سنوات ، وكان اسمه يتصدر مقالاته ، غير أنه لم يحصل إلا على أجر متواضع .

وقد غادر « تورونتو » ليقضى صيف عام ١٩٢٠ على شاطئ بحيرة « والون » ثم عاد إلى أوك بارك . لم يكن إرنست يشعر بالراحة في الموقف المتوتر داخل المنزل ، فخطط لنفسه أن يغادره في أسرع وقت . وهكذا انفصل عن قيود والديه ، وكان يعود بانتظام إلى أوك بارك ، وخاصّة في عطلة نهاية الأسبوع . وجعل من « شيكاجو » مركزه الرئيسي ، وأقام بها في سلسلة من الغرف الرخيصة الأجر ، واستمتع هناك بحياة اجتماعية نشطة

لشباب له كثير من الأصدقاء . وعمل في عدة وظائف متتابعة تتعلق بالكتابة ، وكان مستمراً في إرسال المقالات إلى جريدة « ستار » الأسبوعية .

وقابل « هادلي ريتشارد سون » في عام ١٩٢٠ . وهي فتاة من « سانت لويس » كانت تمرض والدتها . وقد انتحر والدها في عام ١٩٠٣ ، وفُتِنَ إرنست بهادلي التي بادلته الحب ، وخططا لإتمام الزواج ، والذهاب إلى أوروبا ، وخاصة إيطاليا ، حيث يتمكنان من رؤية المناظر التي شهدت مغامرات إرنست في الحرب . وسوف يعيشان على الدخل الذي تُدرّه وديعة مصرفية لهادلي ، وهو حوالي ألفين وخمسمائة دولار في العام . وكان هيمنجواي قد قابل « شيرود أندرسون » في « شيكاغو » في ذلك الوقت ، والذي كان قد نال شهرة كمؤلف « وينيز بورج ، أو هيو » . واقترح أندرسون على هيمنجواي أن يذهب إلى باريس كمكان مثالي لكاتب شاب طموح . وهناك يكون في صحبة جماعة الفنانين المغتربين في عاصمة النزعات العصرية التي تبحث عن أشكال جديدة من التعبير ، فيمكنه أن يتعلم كيف يكتب .

سُرَّ والدا هيمنجواي بفكرة زواج ابنهما ، لقد راقبت لها « هادلي » ، ولا شك أنها اعتقدت أن ذلك الزواج سيجبره على أن يتغلب على ما كان يعوزه من تحمل المسؤولية .

أبحر العروسان الجديدان إلى فرنسا في أواخر عام ١٩٢١ . وشجع هيمنجواي الرسائل الكريمة التي قدمه بها أندرسون إلى الأعضاء البارزين من جماعة الفنانين المغتربين ، ومنهم جرتروود شتاين ، وإزرا باوند ، حيث زكاه أندرسون ككاتب غير عادي . وكان ذلك ثناءً وتمجيحاً كبيراً لكاتب

شاب لم يبلغ من العمر سوى اثنين وعشرين عاماً ، ولم يسبق أن نُشر له أى كتاب .

أقام هيمنجواى فى شقة رخيصة ، ولكنها لم تكن مريحة ، وتجول العروسان فى باريس لاستكشافها ، وللاتصال بجماعة الفنانين المغتربين .

أحب إرنست باريس . وبدأ يتعرف بالروائي والشاعر والناقد فورد مادوكس فورد ، وتحولت تلك العلاقة إلى معرفة شخصية وأدبية عاصفة . وقابل هيمنجواى أيضاً جيمس جويس ، أحد قمم الأدب . وبعد أن طبع هيمنجواى مجلده الأول الصغير « ثلاث قصص وعشر قصائد » سعى سكوت فيتزجيرالد إلى الاتصال به . وتطور الأمر بينهما إلى صداقة تخللتها فترات من المناوشات والمعارك وسوء الفهم .

وأسرع « إزرا باوند » إلى احتضان هيمنجواى ، فقد كان دائماً على استعداد لمعاونة صغار الكتاب ، وعمل على تنوير الشاب هيمنجواى .

خاض هيمنجواى كثيراً من المعارك الأدبية ، وأصبح ذلك نمطاً معتاداً لديه ، واستمر ملازماً له طوال حياته ، وكان على أتم استعداد لمهاجمة عيوب ونقائص أصدقائه الأدباء ومواطنيهم . وقدم مقالاً للنشر بإحدى المجلات التي يعمل بها « إزرا باوند » كمحرر أجنبي ، حيث سخر فيه من بوهيمية باوند الرومانتيكية . ولحسن الحظ لم ينشر ذلك المقال . ولم يكن يروق لهيمنجواى أسلوب الحياة البوهيمية . وقاوم التطفل على الفن ، والتكلف الزائف فى جماعة الفنانين المغتربين .

وهناك مصدر آخر لمنازعات هيمنجواى الشخصية ، وهو اتخاذه لشخصيات قصصه ورواياته من أناس يمكن تمييزهم . ولم يكن يتملقهم أو يجاملهم فى تصويره لهم .

سَمَّرَ هيمنجواى فى باريس عن ساعد الجلد ليصبح كاتباً .

وقد اعترف هيمنجواى بأن نماذجه القصصية الهامة الأولى استلهمها من قصص « وينيزبورج ، أوهيو » ، وهى مجموعة قصصية من تأليف أندرسون . وكانت الرسائل الواردة من المحررين الأمريكين تشكو من أن قصص هيمنجواى لم تكن قصصاً بالمرّة .

وأنتج هيمنجواى أيضاً صوراً انطباعية أدبية ثرية موجزة تمسك بالحدث فى اللحظة المناسبة حين تظهر العناصر الجوهرية العاطفية . وبذل جهداً مضنياً فى العمل بأدواته الأساسية فى فنه : كيف يكون صادقاً مع إيقاع اللغة المنطوقة ، وكيف يقول أكثر بأقل كلمات ، وكيف ينقل الانفعال المطلوب بدون أن يجبر القارئ بطريقتة مباشرة ما يفترض أن يشعر به . ومن الواضح أن هيمنجواى ظل طوال حياته فناناً جاداً .

وقد أتاحت له فرصة القيام بكثير من الأسفار وهو يضطلع بمهامه الصحفية فى « الدليل ستار » اليومية والأسبوعية . فغطى كثيراً من القصص السياسية والحربية الكبرى فى العشرينيات فى كل من فرنسا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، ومنطقة البحر الأسود . وكان يمارس مع زوجته هادلى صيد السمك ، والتزحلق على الجليد ، ويقضى العطلات مرتاداً معها المناطق التى تستحق المشاهدة . وفى الرحلة التى قام بها إلى إسبانيا مع بعض أصدقائه وشاهد فيها مصارعة الثيران أثارت حماسه لها طيلة حياته .

حملت هادلى منه ، وقرر العروسان أن يعودا إلى كندا حتى يولد طفلهما على أرض أمريكية . وقبيل إبحارهما صدر لهيمنجواى فى عام ١٩٢٣ أول مجلد من كتاباته فى طبعة باريسية صغيرة بعنوان : « ثلاث قصص وعشر

قصائد . وصحيح أن المجلد كان رقيقاً غير أنه كان شيئاً واقعياً ملموساً ،
وارتفعت روح هيمنجواى المعنوية . وقد ولد طفله في كندا ، وكان ذكراً ،
وعندما اشتد ساعده قليلاً وأصبح قادراً على تحمل السفر ، أبحر
هيمنجواى وزوجته هادلى وطفلهما إلى باريس ثانية . وحينما كانوا في كندا
كانت الصور الوصفية الأدبية القصيرة التى كان هيمنجواى قد كتبها في
باريس ، قد أُعيدَ نشرها في طبعة باريسية صغيرة تحت عنوان : « في زماننا » .
وفي عام ١٩٢٥ ساعده « دونالد أوجدين ستوارت » الذى كان عضواً في
جماعة الفنانين المغترين في باريس ، على طبع القصص الثلاث التى
يتضمنها مجلد « ثلاث قصص وعشر قصائد » ، والصور الوصفية الأدبية
القصيرة التى يتضمنها مجلد « في زماننا » ، وأضيف إليها مجموعة كبيرة من
القصص القصيرة ، ونشرت كلها في أمريكا لدى الناشرين بونى وليفرايت
بعنوان : « في زماننا » . وكانت كل قصة منها يقدم لها بإحدى الصور
الوصفية الأدبية القصيرة التى كتبها في باريس . وتنبأ بعض النقاد بأنهم
سيرون عدم ارتباط في الموضوع بين كل اثنين منها .

وقد استقبلت القصص القصيرة بالحفاوة من النقاد الذين يتميزون بمزيد
من حدة الملاحظة ، ويتسمون بنفاذ البصيرة ، والتفهم والتعاطف مع المبدع
ومن بينهم إدموند ويلسون ، وبول روزنفلد ، وآلين تيت الذين أجمعوا على
أن هناك موهبة أصيلة ناضجة قد ظهرت في الساحة الأدبية .

أما الرمز في قصص هيمنجواى فلا يدخل وعى القارئ كرمز أبداً ،
ويبلغ هيمنجواى هدفاً متسعاً وعالمياً للمعنى باعتياده على المواقف والأشياء
التي ستتطور من الداخل حتى تتسع وتصبح من المعانى المتضمنة . إن
طريقته أقرب إلى تلك الموجودة في أعمال الكُتَّاب قبل أن تصبح الرمزية حركة

وعى أدبى . وهناك رموز في أعمال هيمنجواى ، ولكنه ليس كاتباً رمزياً .

* * *

وفي عام ١٩٢٦ طبع له الناشر سكريبتر رواية « سيول الربيع الجارفة » وهى تسخر من عمل شيروود أندرسون « السيول الجارفة » . وهى اشتياق غامض للحياة الحقيقية التى تدور كالدوامة حول يوجى جونسون ، وهو محارب قديم ، وسكريبس هوارد ، أحد رجال الأدب ، وهو حر غير مقيد كثير الترحال . وفي النهاية نجد السيول الجارفة تخبىء لسكريبس بحبه الحقيقى ، وتكتسح يوجى العارى إلى الغابات بصحبة أمريكية من الهنود الحمر ، وهى من العراة مثله .

وفي ذلك الوقت تحطّم زواج هيمنجواى ، واتفق الطرفان إنزست وهادلى على العيش فى بيتين منفصلين . وفى يناير من عام ١٩٢٧ طلق هيمنجواى زوجته هادلى ريتشاردسون (وهى المرأة التى كان عليه أن يحبها بقية حياته - كما جاء ذلك فى « عيد متحرك ») .

أحب إنزست باولين بفيفر ، وهى فتاة ثرية من أركانساس كان قد قابلها فى باريس . وتزوجها فى مايو من عام ١٩٢٧ .

وحين نشرت رواية « الشمس تشرق أيضاً » فى عام ١٩٢٦ جلبت لهيمنجواى شهرة واسعة ، وقد اعتبرها كثير من النقاد أفضل رواياته .

تعالج هذه الرواية حياة جماعة من الأمريكيين والإنجليز المغتربين فى باريس بعد الحرب العظمى الأولى . وفى جو مرهق من الضجر والملل تدفعهم رغبة فى التحرر من الوهم إلى الانغماس فى المباحج والمسرات المسعورة التى يلفها الغموض والإبهام والقمامة ، نراهم يقومون بجولات إلى الحانات

والتواذى الليلية يرقصون ويبالغون فى الشراب ، وينغمسون فى العلاقات الغرامية ، وتنطلق حناجرهم خلال ذلك بالضحك وإطلاق النكات ، ساخرين من الجراح التى ابتلتهم بها الحرب فى أجسامهم ونفوسهم . ويعطى ذلك لهيمنجواى قبضة قوية على الواقع وحقيقته ، ويجعله مُحَلِّلاً حاذقاً للنفس البشرية فى زماننا .

* * *

وحين عاد هيمنجواى من أوروبا مع زوجته « باولين بفيفر » فى عام ١٩٢٨ استأجرا شقة فى « كى ويست » فى فلوريدا لعدة أسابيع ، وكان ذلك بداية لارتباطه الطويل بمنطقة الكاريبى . وجاءه فى هذا العام فيما بعد أبناء انتحار والده ، فهزه ذلك من الأعماق . وجاء فى كتاب كارلوس بيكر الذى ألفه عن الكاتب هيمنجواى كفنان ، والذى صدر ضمن مطبوعات جامعة برينستون فى عام ١٩٥٢ أن إرنست فى فترة تشييع جنازة والده سأل والدته أن ترسل له المسدس كتذكار تاريخى . وقد استجابت لطلبه .

كان هيمنجواى يكتب رواية أخرى « وداعاً للسلاح » استلهمها من خبراته فى الحرب العظمى الأولى . والشوق يدفعه إلى أن تجمىء عملاً كبيراً ناجحاً لترسيخ المركز الذى ظفر به فى العالم الأدبى بروايته « الشمس تشرق أيضاً » ويقصصه القصيرة .

كانت الحرب فى إيطاليا تجربة أحدثت صدمة للشباب البسيط . وبعد مرور عشر سنوات على ذلك الحدث انتقل ليصبح فى قبضة الفن والعاطفة كوحدة كاملة لتجربة هيمنجواى فى إيطاليا ، فكتب روايته «وداعاً للسلاح» عن تلك الحرب .

وتُعدُّ رواية « وداعاً للسلاح » - بوصفها للإنسان في المعركة - من أفضل وأهم روايات الحرب ، ونجد هيمنجواي يصف الحرب كما تبدو في عيني أحد المشاركين فيها ، كما فعل ستندال (وهو الاسم المستعار للروائي الفرنسي هنري بيل) في روايته « البيت المؤجر في بارما » (١٨٣٩) ، والروائي الأمريكي ستيفن كرين في روايته « شارة الشجاعة الحمراء » (١٨٩٥) . واستطاع هيمنجواي أن يُصوِّر الارتباك والفوضى في المعركة كما عايشها كل جندي ويوصلها إلى القارئ . ولم يقدم هيمنجواي مشهداً شاملاً لأرض المعركة أو رسماً منظورياً للحرب ، كما لم يشغل نفسه باستراتيجية وتكتيكات القواد أو رجال السياسة .

إن هيمنجواي يُرينا الحرب كإهانة بالغة لا تُطاق للإنسانية ، وهو لا يهتم ولا يركز على الأوجه السياسية للحرب .

ونحن نجد الخطوط المحيطية للأشكال والصور غير محددة بدقة ، فتكنيك هيمنجواي تأثري ، أي انطباعي بصري ، يجعل القارئ يركز على الصورة بإدماج الألوان بنفسه ، فهيمنجواي شديد البراعة في فنه ، إذ يعرف متى لا يقول أكثر مما قاله .

وتعد « وداعاً للسلاح » من أجمل قصص الحب في الأدب الأمريكي .



ونُشر ليهيمنجواي بعد ذلك عملان كبيران : « الموت بعد الظهر » في عام ١٩٣٢ و « تلال إفريقيا الخضراء » في عام ١٩٣٥ ، بالإضافة إلى قصص كثيرة عديدة رفيعة المستوى .

وكتاب « الموت بعد الظهر » يحكى عن تاريخ مصارعة الثيران في

إسبانيا، ويتضمن قاموساً لشرح الكلمات العسيرة ، ومختارات رائعة من الصور التي جمعها هيمنجواي الذي أصبح شديد الإعجاب بمصارعة الثيران . ولما كان هيمنجواي يعتقد أن مصارعة الثيران هي تعبير عميق عن الشعب الإسباني ، فإن كتاب « الموت بعد الظهر » ليس مجرد كتاب عن مصارعة الثيران فحسب ، بل إنه أيضاً تاريخٌ ثقافي ، وكتاب رحلات عميق ، وهو شيء أقرب إلى أغنية حب لإسبانيا .

وفي عام ١٩٣٣ قام هيمنجواي برحلة قنص وصيد إلى شرق إفريقيا مع تشارلس تومسون ، وهو من أصدقائه المقربين ، وزميله في صيد الأسماك من « كى ويست » . وصادفت تلك الرحلة نجاحاً كبيراً ، وأحب هيمنجواي إفريقيا ، ومن الجانب الأدبي أمدته تلك الرحلة بهادة كتابه « تلال إفريقيا الخضراء » ، وكذلك بهادة اثنتين من أروع قصصه القصيرة « حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة » و « تلوج كيليا نجارو » .

وفي عام ١٩٣٧ ظهرت له رواية « مَنْ معه ، ومن ليس معه » وتقع أحداثها في « كوبا » و « كى ويست بفلوريدا » عن رجل قتل بعد أن أصبح طريد القانون ليُعين أسرته ويساعدها .

ونشرت له رواية « لمن تُدقُّ الأجراس » عام ١٩٤٠ التي تقع أحداثها إبان الحرب الأهلية الإسبانية ، واستقاها من عمله كمراسل حربي لصحيفة اتحاد شمال أمريكا ، حيث سافر إلى إسبانيا في عام ١٩٣٧ ، ومن هناك استوحى أيضاً مسرحيته « الطابور الخامس » التي نُشرت عام ١٩٣٨ .

وفي عام ١٩٤٠ طَلَّق هيمنجواي زوجته باولين بيفير ، وتزوج بصحفية شابة تدعى « مارتا جيلهورن » .

وعمل في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٦ مراسلاً حربيًا في أوروبا ، وطار مع سلاح الجو الملكي ، وشارك في غزو نورماندى ، وانضم إلى فرقة المشاة .

وظلق « مارتا جيلهورن » في عام ١٩٤٥ وتزوج « ماري ويلش » التي قابلها في لندن في أثناء الحرب عام ١٩٤٦ . وكان سعيداً في حياته الزوجية مع تلك الزوجة الرابعة إلى أن مات .

وفي عام ١٩٤٨ رحل هيمنجواى إلى إيطاليا التي لم يرها منذ عام ١٩٢٧ . واتخذ من « البندقية » قاعدة له . وقام مع ماري برحلات قصيرة إلى شمال إيطاليا ، وأخرى إلى أحد المشاهد في تجاربه الحربية في عام ١٩١٨ .

وتصادق في مدينة « البندقية » مع الكثيرين من أرسطوقراطيي إيطاليا ، وخاصة فتاة في التاسعة عشرة من عمرها تدعى « أدريانا إيفانتشيك » . وكانت ثمرة تلك الزيارة رواية « عبر النهر وإلى الأشجار » التي نُشرت في عام ١٩٥٠ ، وبطلها الكولونيل الأمريكى « ريتشارد كانتويل » وهو في الخمسين من عمره ويعمل في سلاح المشاة الأمريكى ، واشترك في الحربين العالميتين اللتين دارت رحاهما في القرن العشرين ، حيث حارب كضابط شاب مع الجيش الإيطالى في الحرب العظمى الأولى ، وحارب حين تقدم به العمر مع الجيش الأمريكى في فرنسا وألمانيا في الحرب العظمى الثانية .

يعود الكولونيل ريتشارد المريض بالقلب - في أيامه الأخيرة قبل موته - إلى مدينة « البندقية » الأثيرة لديه ليرى حبيبته الفتاة الإيطالية الشابة « ريناتا » . إن الفقرات التي تحمل وصفاً للجسور ، والقنوات ، والمباني في البندقية ،

والمحيط ، كانت من أروع ما كتبه هيمنجواى ، غير أن الرواية قُوبلت بفتور.

* * *

وفي عام ١٩٥٢ نُشرت له رواية « العجوز والبحر » التى رُحِب بها النقاد أياً ترحيب ، واعتبروا أن هيمنجواى قد عاد بها إلى ذروة قوته . وقد حصل بها هيمنجواى على جائزة بوليتزر لعام ١٩٥٢ . وكان ذلك مقدمة لفوزه بجائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٥٤ ، حيث جاء فى تقرير اللجنة أن الجائزة مُنحت له لتفوقه وامتلاكه لناصية الأسلوب فى فن الرواية الحديثة ، كما يظهر ذلك بوضوح فى روايته الأخيرة : « العجوز والبحر » .

ويرتكز بناء تلك الرواية ونسيجها على حدث واحد غير معقد فى حياة صياد أسماك عجوز من « كوبا » يدعى « سانتياجو » . وتدور الرواية عن ذلك العجوز ، بالإضافة إلى الصبى « مانولين » المعجب به ، وقد رسم هيمنجواى هاتين الشخصيتين بعمق . وكانت حبكة « العجوز والبحر » تدور فى تلافيف عقله منذ عام ١٩٣٦ . وحين تقدمت السن بهيمنجواى اكتشف ثروة جديدة فى قصة ذلك الصياد العجوز .

لم يظفر « سانتياجو » بأية سمكة طوال أربعة وثمانين يوماً ، وقد راوده الأمل فى ذلك اليوم بأن الحظ سيعود ويطرق بابه ثانية ، فراح يضرب بمجدافيه فى الماء بنشاط ، خارجاً بمركبه من ميناء « هافانا » قبل أن تبرز الشمس من خدرها ، فأوغل فى البحر عاقداً العزم على الاصطياد فى مكان بعيد لم يصل إليه من قبل ، وفيها وراء المنطقة التى اعتاد غيره من الصيادين كَسْب رزقهم فيها ، إنه ينشد اصطياد سمكة ضخمة ، وإذا تحقق ذلك فلن يُدِرَّ عليه ربحاً وفيراً فحسب ، بل سيعيد إليه أيضاً كبرياءه كرجل .

تعلقت بخطافه سمكة ضخمة من نوع « المرلين » التي تمضى قُدماً في البحر صوب الشمال والشرق وهي تسحب المركب وراءها ، ولا تصعد السمكة إلى سطح الماء ، ويستطيع « سانتياجو » من حركة المركب السريعة معرفة نوع السمكة التي ظفر بها .

ثم يمضى يومان تصعد السمكة بعدهما إلى سطح الماء ، وتقفز خارجه في محاولة للتخلص من الخطاف وإلقائه بعيداً عن فمها .

ويدرك السمكة التعب في اليوم الثالث فتشرع في إدارة المركب حركة دائرية ، ويتمكن « سانتياجو » من جذب السمكة إلى أن تصبح قريبة جداً من المركب . وأخيراً حين تصبح في محاذة المركب يطعنها العجوز برمح ويقتلها . ولما كانت السمكة أطول من المركب كان لا بد من ربطها إلى الحافة العليا من جانب المركب تَوَظُّتَةً لرحلة العودة إلى « هافانا » . ثم تجيء أسماك القرش جماعات وفُرَادَى ، وبرغم المحاولات المضنية التي يبذلها العجوز ، تتمكن من تمزيق لحم السمكة . وحين يصل المركب إلى الشاطئ ويستقر به لا يبقى من السمكة سوى هيكلها العظمى . يخلع العجوز الصارى من مكانه ، ويطوى حوله الشراع ويربطه ثم يحمله على كتفه ، ويمضى إلى كوخه وهو يتهايل ويترنح . وهناك يتمدد فوق فراشه وينام .

وحين نتصدى لمناقشة رواية « العجوز والبحر » فإن أسوأ فهم لها أن نعتبر « سانتياجو » هو هيمنجواى نفسه . ومن ذلك المنطلق فإن أسماك القرش قد تصبح نقاد هيمنجواى ، وتصير الرواية كلها تأكيداً للذات واستدراكاً للعطف . أما إذا تراجعنا واعترفنا بأن « سانتياجو » هو جزء من التاريخ النفسى والروحى لهيمنجواى فإن هذا سيكون أمراً آخر . فقصة الصياد

العجوز تعكس الرؤية المأسوية الناضجة لهيمنجواى وتؤكددها . فهى تسلم تماماً وتعترف بوجود الشر والأذى والمصائب والكوارث وتقلب الظروف التى يصعب تعليلها أو التنبؤ بها ، وبرغم ذلك فإن هيمنجواى يقدر الطاقة الكامنة فى الجنس البشرى ، والمشاركة الجوهرية بين الإنسان والطبيعة . فسانتياجو برغم أنه يريد قتل السمكة فإنه يشعر نحوها بالإعجاب . . إنه رباط من الحب والاحترام بين خصمين جديرين بالاهتمام . . إن الصراع بين العجوز والسمكة كان مباراة عادلة تثير إعجاب المشاهدين ودهشتهم وإشفاقهم . وعندما تهاجم القروش السمكة يتدخل هنا عامل آثم شرير ، مما يوجب اعتذار « سانتياجو » :

- إننى آسفُ لك أيتها السمكة ، لقد ساء كل شيء .

ربما لم يكن كل شيء قد ساء تماماً . فالسمكة والعجوز تصارعاً بشرف ، غير أن هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة للعالم ، إن الخصمين من الخاسرين معاً ، ولكنهما أيضاً من الرابحين معاً .

إن مبدأ الشر فى الرواية يرتكز على مشاعر هيمنجواى التأثرية الانطباعية أكثر من استناده إلى منطق فلسفى . إن البارجة البرتغالية حيوان من « الأبائيات » يطفو فوق الماء بوساطة مثانة جيلاينية ، وتتدلى خلفه خيوط سامة مميتة ، فأسمها سانتياجو « البَغِيَّ » . وسمك القرش شر أيضاً ، إن الشر يعنى الجبن وسوء المظهر والأنانية أو القسوة ، وبعد أن تشوهت السمكة من جراء اللحم الذى مَزَّقَه القرش وانتزعه منها ، عَبَّرَ سانتياجو عن شكوكه وحيرته إزاء ذلك القرش الذى قام بأول هجوم قائلاً :

- إن أبا الأسنان يعيش على الأسماك التى أعيش عليها أنا الآخر . وهو

ليس قِماماً يقتات بالِقِمَامَة ، أو مجرد شهية متحركة من أجل الطعام مثل بعض أسماك القرش ، إنه جميل ونيل ، ولا يهاب شيئاً .

وربما كان ذلك القرش - من بعض الأوجه - مثل الصياد ، فالشر لا يمكن وحده أن يعلل إحباط وخيبة الإنسان .

وكثيراً ما توصف رواية « العجوز والبحر » بأنها تعبر أو تلمح إلى مبدئ أخلاقي أو ديني .

ويمد هيمنجواي اقتصاده المعتاد في الأسلوب إلى اقتصاد في البناء والمعالجة ، إنه يعرى المسائل الخارجية إلى أبعد حد . إن المظهر البدني الخارجى لسانتياجو مرسوم رسماً تخطيطياً أكثر منه لوحة مصورة ، والصفات الأخرى مرسومة بطريقة تبرز فيها الخطوط المحيطية .

وسانتياجو في معركته مع السمكة الضخمة رجل وحيد في البحر ، بيد أن علاقاته بالجنس البشرى والتاريخ تمتد إلى الأرض ، فهناك في البداية الصبي « مانولين » الذى منعه والداه من الإبحار مع « سانتياجو » خشية أن ينتقل سوء حظ الرجل العجوز ، والنحس الذى يلازمه إلى الصبي ، وفي نهاية الرواية يعزم الصبي على الانضمام ثانية إلى معلمه الناصح المخلص ، وحين كان العجوز يستعد للراحة بعد عودته من رحلته المضنية الشاقة التى أوغل فيها داخل البحر ، يقول له الغلام :

- يجب أن تسترد عافيتك سريعاً فهناك الكثير الذى أستطيع أن أتعلمه ، ويمكنك أن تعلمنى كل شىء .

هذا الغلام الذى أحضر الطعام والدواء إلى سانتياجو لم يفقد قط إيمانه بمكانة سانتياجو ومنزلته الرفيعة كصياد وبطل .

وعادة ما يكون أبطال هيمنجواى محبوين أو مُبجّلين ومُوقّرين . وفي رواياته الأخرى نجد امرأة تحب البطل ، في حين أننا هنا نجد صبيّاً يحب البطل العجوز ، وقد يرجع ذلك إلى أن هيمنجواى أصبح كهلاً عندما كتب رواية « العجوز والبحر » . ومع ذلك يمكننا أن نمضى إلى أبعد من ذلك ، ونعتبر أن الرباط الذى يربط مانولو بسانتياجو هو حلقة ربط بين الأجيال ، والأمل فى استمرار الحياة ، وحاجة الكبير إلى الصغير ، والصغير إلى الكبير.

كان العجوز سعيداً فى زواجه ، وفوق جدران كوخه علّق الرجل صورة ملونة للقلب المقدس ، وأخرى للعدراء ، وكانتا بقايا صور تذكارية من زوجته التى غادرت دنياها ، وفيها مضى كانت هناك صورة فوتوغرافية لها ذات ألوان باهتة معلقة على الحائط ، غير أنه أنزلها من فوق الجدران ؛ لأنه كلما نظر إليها كانت تحمل إليه إحساساً بالوحدة والغربة الموحشة ، ووضعها على رف فى ركن خلف قميصه النظيف .

ولسانتياجو علاقاته مع الماضى ، تاريخه الخاص ، ففى شبابه كان بطلاً قوياً ، وفى إحدى مباريات القوة استطاع أن يثنى ذراع متحديه الذى كان جباراً ذا قوة خرافية ، وها هو ذا العجوز يحلم الآن بالأسود والسباع فوق شواطئ إفريقيا التى سبق أن شاهدها من فوق سطح إحدى السفن . يجلس الصبى فاغراً فاه حين يخبره الرجل العجوز بالحلم .

ويحتمل حلم السباع فوق الشاطئ مختلف التفسيرات والتأويلات على أوسع مدى . . فقد يكون حُلْم مغامرات ، أو طاقة وكبرياء لا حد لها ، أو حُباً للكون والبشر ، أو سخاء الحياة ، إنها جملة فيها المعنى العام واضح ، ولكن يمكن أن يرى فيها كل إنسان شيئاً خاصاً به .

وحين يقول العجوز إنه كان يجب ألا يتوغل بعيداً في البحر ، لا ينبغي أن نأخذ ذلك مأخذ الجد ، إذ أنه في المرة القادمة قد يتوغل إلى مدى أبعد .
وقد لا تكون « العجوز والبحر » أعظم روايات هيمنجواي ، ولكنها العمل الذي حظى منه بأبداع تعبير برؤيته الناضجة المترنة .

* * *

كانت رواية « العجوز والبحر » آخر أعمال هيمنجواي القصصية . وقد قضى الأعوام التسعة الأخيرة من حياته وهو يناضل في معركة خاسرة لا يمكن تجنبها ضد المرض والشيخوخة ، والانحدار العام في طاقته الإبداعية .
وقام برحلته الثانية إلى إفريقيا مع زوجته « ماري » في الفترة بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ وقد منحته سعادة بالغة . واصطحب معه « فيليب برسيغال » الذي كان هيمنجواي يُعجب به كدليل منذ عشرين عام مضت . وبدًا أن هيمنجواي استعاد في تلك الرحلة حيوية وحاسن آيا ، شبابه ، غير أن الخائفة كانت خطيرة ، فقد تحطمت بهم طائرتان على التوالى في أوغندا في نهاية الرحلة ، وكاد يلقي حتفه هو وزوجته ، بل نشرت كثير من الصحف نبأ وفاته . وقد ساءت صحته بعد ذلك ، وكان يعاني من ارتفاع ضغط الدم ، واضطرابات خطيرة في الكبد ، والقلق ، واعتلال نفسى وجسدى مزمن بسبب تحطم الطائرتين ، وحية مملوءة بالحوادث تركته مرهقاً مهزوماً ، وقد انتشرت آثار الجروح والندوب في جسده .

وفاز بجائزة نوبل عام ١٩٥٤ وكانت رواية « العجوز والبحر » ذات أثر حاسم في قرار لجنة الجائزة السويدية ، وقد أشادت اللجنة بإعجاب هيمنجواي بكل فرد يُقاتل قتالاً جيداً في عالم واقعي يظله العنف والموت .

· وعمل همنجواى فيما بين عام ١٩٥٧ و عام ١٩٦٠ على فترات متقطعة ، حيث كتب ذكريات السنوات التى أمضاها فى باريس من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٦ ، ونُشرت بعنوان « عيد متحرك » فى عام ١٩٦٤ بعد ثلاثة أعوام من وفاته ، وقد استعاد فيها سعادته وهو شاب بمهنته الجديدة ككاتب ، وحياته فى باريس بمقاهيها وفنونها ومنتزهاتها ، وزواجه . وظلت سنوات تعلمه فى باريس ، والشخصيات الأدبية التى قابلها ، حية فى عقله ، أو «عيداً متحركاً» كما سماها .

عانى هيمنجواى فى السنتين الأخيرتين فى حياته من تدهور جسدى وعقلى ، فقد نقص وزنه ، وارتفع ضغط دمه إلى درجة خطيرة ، وضعفت ذاكرته ، فلم يعد قادراً على دقة استعادة الأحداث التى يُصمِّنها كتاباته . وكان من أكثر الأشياء المندرة بالسوء زيادة معاناته من الإحباط والاكتئاب النفسى الذى كان يتتابه فى فترات عصبية على نحو خطير . وأظهر فى عام ١٩٦٠ ميلاً إلى الانتحار فدخل « مايو كلينيك » فى « مينيسوتا » للعلاج ، وغادرها عام ١٩٦١ عائداً إلى كيتشوم ، ولم يلبث أن عاد إلى « مايو كلينيك » بعد شهور قلائل ، ثم سُمح له بالخروج ثانياً ، برغم أن زوجته كانت تتوجس خيفة من ذلك ، وأنهى هيمنجواى حياته منتحراً فى بيته بـ كيتشوم بإطلاق النار على نفسه من بندقية صيد بماسورة مزدوجة .



الدكتور غبريال وهبة

نشر له ١٩ كتاباً و ٦٤ قصة
قصيرة و ٢٥٠ مقالاً في النقد
الأدبي والمسرحي بالصحف

والمجلات بمصر وشقيقاتها العرييات . وهو عضو اتحاد الكتاب ، ونادى
القصة ، وجمعية الأدباء ، ونقابة المهن التمثيلية (شعبة النقد) . ويعمل
حالياً نائب رئيس تحرير مجلة عالم الفكر .

والدكتور غبريال وهبة حاصل على بكالوريوس كلية العلوم ، جامعة
القاهرة - دبلوم دراسات عليا في التربية وعلم النفس - دبلوم إشراف فني
(بعثة داخلية) بكلية التربية ، جامعة عين شمس - دبلوم في اللغة الإيطالية
من معهد دانتي أليجييري - دبلوم الدراسات العليا في النقد الفني من المعهد
العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون - ماجستير في النقد الفني ، أكاديمية
الفنون - دكتوراه الفلسفة في الفنون من المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية
الفنون .

كتب صدرت للمترجم :

- ١- الكيمياء في خدمة المجتمع : لجنة البيان العربي ١٩٥٦ .
- ٢- الطاقة الذرية : لجنة البيان العربي ١٩٥٦ .
- ٣- طرائف ومداعبات علمية : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ .
- ٤- دنيا الدم : لجنة البيان العربي ١٩٥٨
- ٥- الإصبع أو الزمن ينصرم : من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية
العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .
- ٦- سأخذ بثأري : من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٩ .

- ٧- الدوامسة : الهيئة العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠ .
وهي الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
- ٨- العاصفة : العدد ٢٩٩ من روايات الهلال - نوفمبر ١٩٧٣ .
- ٩- ليال لا تنسى : العدد ٣١٧ من روايات الهلال - مايو ١٩٧٥ .
- ١٠- المسحوق السحري ومسرحيات أخرى : مكتبة الأنجلو المصرية
. ١٩٧٥ .
- ١١- جسر بنات يعقوب : من سلسلة الإبداع العربى - الهيئة المصرية
العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ .
- ١٢- دانتي والكوميديا الإلهية : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ .
- ١٣- أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي : من الألف كتاب
(الثانى) - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .
- ١٤- الزوجة الأولى : من سلسلة الرواية العربية - الهيئة المصرية العامة
للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٧ .
- ١٥- الغلطة الوحيدة - صوت من الفضاء : مسرحيتان علميتان - مكتبة
الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .
- ١٦- دون كيشوت بين الوهم والحقيقة : من سلسلة دراسات أدبية - الهيئة
المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٩ .
- ١٧- كاميلو خوسيه ثيلا : الفائز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٩ .
سلسلة المكتبة الثقافية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة)
. ١٩٩٠ .
- ١٨- المعجوز والبحر : ترجمة ودراسة نقدية عن هيمنجواى .

رقم الإيداع

٩٨ / ٨٢٨٩

I.S.B.N

977 - 01 - 5753 - 8

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

